
سالم حمّيش
أنا المتوغّل
وقصص فكريّة أخرى
دار الآداب

سالم حمِّيش

أنا المتوغِّل...

وقصص فكرية أخرى

دار الآداب - بيروت

أنا المتوغِّل وقصص فكرية اخرى

سالم حمّيش/كاتب مغربيّ

الطبعة الأولى عام ٢٠٠٤

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير - بناية بيهم

ص.ب. 4123-11

بيروت - لبنان

هاتف: 861633 (01) - 861632(03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

إلى أحمد بوزفور

وسعيد الكفراوي،

محبةً وتقديراً.

«قـــال المنجـمُ والطبـيـبُ كــلاهـمــا
لا تُحـشـرُ الأجـسـادُ قلتُ إليكـمـا
إن صحَّ قــولكـمـا فلستُ بخـاسـرٍ
أو صحَّ قـولي فـالخـسـارُ عـليكـمـا».
[أبو العلاء المعري، **اللزوميات**]

متى توقفت العبقرية وتعطّل الطموح وتقلّصت التطلُّعات، توارى النور وأفل الأمل وحكم الأموات الأحياء».
[إبن خلدون، **المقدمة**]



تمهيد

إنَّه، والحقّ يقال، انقلاب أبيض جدا ذاك الذي قام به المارشال المتقاعد، الناجي أبو الخيرات، ضد طغمة من الضباط الأغرار، استولوا منذ شهرين على السلطة بقوة السلاح والفتك. فما إن نصب المنتصر نفسه رئيساً مدى الحياة حتى بات همّه الأكبر، والحقّ يقال، أن يهدِّئ الأوضاع تحت حكمه، ويخفِّف من كثرة السجناء والمعتقلين، بدءاً بجماعة أخبره نائبه أنّ أفرادها من صنف غريب خاص، ووعده بتمكينه من قصصهم مصوّرة في شريط فيديو ملوّن. ومن ثمّ قويَ فضول الرئيس، وتشوّق إلى مشاهدة الشريط الموعود في أقرب وقت؛ فأخذ النائب يستمهله ويصبره بدعوى بروز صعوبات تقنية وبشرية لم تكن في الحسبان، ولكن لن تثنيه عن عزيمته على إنجاز المهمة بأيّ ثمن. والحقّ أنّ الاستعدادات للقيام بالمهمة كانت على قدم وساق، يحرّكها ويشرف عليها وزير الأمن والإعلام نفسه بتفويض من نائب الرئيس، وذلك في مجمّع خصوصي يوجد على بعد بضعة كيلومترات في منزلة بين سجن مدني ومارستان، مجمّع وُضع فيه

تحت الحراسة النظرية صنف من الرجال لم تصدر بعد في حقّهم أحكام قضائية نهائية، وقالت تقارير الشرطة والمحقِّقين إنّ خطرهم من طراز مميّز وعيار حادّ، يمثِّله الرمي الرقيق بالأفكار الثاقبة المحرّضة في مكامن الرؤوس والأفئدة، فتفعل فيها ما لا يبعث على الارتياح ولا تحمد عقباه.

بذل الوزير المفوّض وخمسة من مساعديه، والحقّ يقال، قصارى جهودهم لإقناع أولئك الرجال بجدوى عرضهم القاضي بأن يروي كلّ واحد منهم في شريط فيديو قصة حياته وحتى قصة غيره على نحو مشوّق ومركّز، فإن أعجبت فخامة الرئيس وأدهشته، نال صاحبها إبراء ذمته وأُخلي سبيله من دون غرامة أو شرط. غير أنّ ذلك العرض لم يلق من المعنيين به إلاّ اللامبالاة والهزء. ولما أن كثرت عليهم الضغوط والمضايقات، صاروا يماطلون مفاوضهم ويسوفونه، متذرِّعين بسوء ثقتهم في أهل الدولة، وحاجتهم إلى التفكير العميق والمداولات المستفيضة قبل تقرير الرأي الراجح والموقف الفصل. لكن مخاطبهم الأول لم يكن يقوى على الانتظار أكثر ولا على استمهال رئيسه الذي كان بدوره يخضع لإلحاح الرئيس في الحصول على الشريط، شبيه بإلحاحه في طلب تفويض شعبي باقتراع صندوقي مباشر. وعليه، لم يجد الوزير من حيلة إلاّ ترغيب المعتقلين في الاكتفاء بكتابة رؤوس أقلام حول قصصهم أو قصص غيرهم، على أن

يتولّى تحليلها وصياغتها أمهر الكتبة ويقوح بأداء تسجيلها أقدر الممثِّلين وأبرعهم.

اقتراح قابله الجميع بالرفض. فقال المتحدِّث بلسانهم إنّ أصحابه ليسوا ممّن «يعطون رؤوسهم للحجام»، وقال إنَّه «ما حك جلدك مثل ظفرك»، وإنّ «أهل مكة أدرى بشعابها»؛ فسألهم الوزير مطاطئًا رأسه: وما الشرط؟ فأجابوه بكلام متنوّع والمعنى واحد: أن يتطوّع من شاء للحكي المصوّر على أن تكون له سلفًا في جيبه رسالة إطلاق سراحه بإمضاء نائب الرئيس نفسه، ولا يهمّ أن يتعجّب الرئيس لقصته أم لا. وكان أن أنهوا الجولة الأخيرة مع مفاوضهم الذي أراد انتزاع تنازلهم عن الحيثية الأخيرة، فقالوا: هذا مسك كلام العقلاء والزيادة من رأس الأحمق.

حين أيقن الوزير أنّ التفاوض مع أولئك الرجال وصل إلى حدّه، نقل محتواه إلى رئيسه المباشر، مستعيذاً باللّه من الهرم، مبرِّراً هذا بالقول إنّ المارشال الرئيس مثله كمثل العجوز الذي ذهبت منه لذات المأكل والمشرب والمنكح، ولم تبق له إلاّ لذة سماع العجائب. نبه النائب مرؤوسه إلى أنّ للحيطان آذانًا، ثم بعد أن تأكّد من عدد أولئك الرجال، اكتفى بالتوقيع على أوراق تسريح نصفهم، وهم عشرون، وذلك على سبيل تجريب

دفعة أولى منهم وتبنّي نهج الحيطة والحذر. غير أنّ الوزير لم يجد من المتطوّعين إلاّ اثني عشر لا أكثر، فقبل عددهم وشرطهم مكرهًا، ثم حدد للعروض وتصويرها موعدًا قريبًا، وأوصى المرشّحين بكتابة قصصهم والتدرّب على إلقائها حتى لا يحدث أي بطء أو خلل أمام عدسة الكاميرا والطاقم التقني المصاحب.

وكذلك كان، إذ لم تغب شمس النهار حتى عرفت العملية نهايتها، وقام التقنيون بتنفيذ أوامر الوزير وكبير الرقباء بتشذيب الشريط وتهذيبه، ولو بالمقص عند اللزوم، ثم إخراجه في ثلاث نسخ، سلمت إلى نائب الرئيس الذي سارع إلى رفع واحدة إلى حضرة الرئيس، مغلفةً مصانة، مشفوعةً بعبارات الاعتذار عن التأخير الخارج عن إرادة التقنيين والخدم. ولعلّ الجدير بالإشارة أنّ الرئيس حينما استلم الشريط من نائبه، أظهر الكثير من البرودة وعدم الاكتراث، كأنّه جاهل بالأمر وغير معنيّ به، ولم يجرؤ النائب المذهول على تذكيره بالموضوع أو وضع بعض النقط على الحروف.

في فيديوتيك الرئيس ظلّ ذلك الشريط قابعًا في جوار أشرطة أخرى، كفرانكانشتاين والملك الأسد وفانطوماس وسوبرمان، حتى إذا انتاب صاحبَها ذات مساء قرفٌ واكتئابٌ

وقعت عليه يداه بمحض الصدفة في ليلة ممطرة، فأخرجه من لفافته وشغّله، ثم استرخى على أريكة لمشاهدته بآلة التحكم عن بعد، فكان أن تابع لاهيًا بعض قصصه وغفا أثناء أخرى تحت تأثير التعب وكؤوس خمره المفضّل...


قصة المتوغِّل وقيل «المتغوِّل»

هو أنا المتوغّل وقيل «المتغوّل»:

لقبان غلبا عليّ حتى أنسيا الناس اسميَ الأصلي. الأول خصّني به من تبقّى لي من الأقارب والخلاّن، لما أن عاينوا ما آل إليه طبعي وكنهي؛ والثاني ألصقه بي تحريفًا للأول رجال القبض والاستنطاق.

قيل لي: لعلّ اللقبين سيّان، لأنّك زدتَ عن حدّك فانقلبتَ إلى ضدّك.

وحدّي، حتى سن الكهولة الأولى، كمُن، يا أخوةَ الأسر، في السرعة والصرامة وصوغ الرأي، وفي اتّخاذ الموقف والقرار على نحو مربّع، لا اشتباه فيه ولا لين ولا لبس. كلّ شيء عندي، ولو تعلّق بالباطن والوجدان، كان قابلاً لأن يُسطّح ويُقعّد ويصرّف. النسبيُّ البحت (وقد أقول الدائم) كان عقيدتي والأُكلُ المباشر شعاري. انتهاء هيكلي إلى الفناء وذكري إلى الهباء: كان حجّتي القصوى على كل من قارعني بالمطلقات،

وساومني بمشتقاتها وبريقها... وأذكر من قال لي ذات يوم مستشهداً بأحد معلّميه الفكريِّين المقدمين: «لا نبلغ درجة القدرة إلاّ حينما نحقّقها من غير خطأ ولا تردّد»، فكان ردِّي: طالما لا يتوافر هذا الشرط، حتى في سنوات الاعتبار والنضج، فإنّ القدرة المثلى تظلّ أقرب إلى الحلم والوهم، لا إلى البلوغ والأخذ.

واقعيًا كان حدّي ونفعيًا حتى الأقصى. القيم لم تكن لغتي إلاّ ما تداولتها الأرقام في البورصة، والدعوة إلى الإنسان ـ الغاية لم تكن مهنتي ولا ذات مكانة في حسابي وحماسي. وعلى ضوء حدّيَ هذا شرعت بين الفينة والأخرى أنشر على نفقتي ومسؤوليتي شعراً آليًا، مواده من إسمنتٍ وفولاذٍ وحديدٍ ودخان.

وبالمناسبة، مهما أنسَ فلن أنسَ يوم اعترضتْ طريقي امرأةٌ عجوز، مقوسةُ الظهر، ذابلةُ الجلد، لم يتبق من شعرها المبيِّض إلاّ عُشرُه، فخاطبتني بلهجة التوبيخ والعتب، وهي تحرّك عصاها:

ـ قراءتي لكلامك أفسدت عليّ صيف عطلتي، يا هذا!

مغالبًا ذهولي وخوفي، سألتها:

ـ وكيف يا مولاتي؟!

ـ استهتارك المريع بالإنسان والمحيط (قالت)، وتقديسك للسلعة والسوق ولقانون الأقوى! صفحات أمثالك تُلحق الأذى بالأوكسجين بل وبطبقة الأوزون، ياهذا!

استفسرتها متحرّجًا:

ـ وما العملُ ياسيِّدتي؟

ـ أن تخليَ الكتابةَ منك (أجابت) وترفعَ عنها يديك...

لم أجد بدًا من الردّ عليها بلهجة الاعتذار والرّقة:

ـ لكنِّي، يا قارئتي المبجّلة، لم أطلب منكِ حملَ كتابي ولا مجاراةَ سطوري.

رفعتْ عصاها في وجهي مهدِّدةً، فهربتُ منها كما يهرب طفل من جنية شمطاء في عزِّ الليل.

بعد فترة وجيزة، علمت أن معيّرتي الشرسة كانت تناوش أيضًا بعض المارة من انتقائها وتشاكشهم، وأنّ تصرفها هذا كان، حسب ما قيل، طريقتها المبتدعة في التلهي ولو إلى حين عن وحدتها، وفي تبديد ذعرها الوجوديّ ولو بمقدار.

قلت: ذاك كان حقًا حدّي، أما أنّي زدتُ عنه ـ كما قيل ـ فانقلبتُ إلى ضدي، فلي فيه نظر، لا يفهمه إلاّ الراسخُ المتوغلُ

في مقامات التأويل، حيث أعز ما يُطلب ليس ضداً لشيء أو ردةَ فعلٍ عليه، بل إبداعًا للشيء، ولقوامه وأبعاده إنشاء.

أما كيف غدوت لا أقنع بغير المطلق الصرف والبحث فيه، ولا أقتنع إلاّ بتجلياته وأماراته، فأمره مردود إلى ما تسلّط عليّ من أقوال ثقال ومعانٍ جسام، امتخضت لي زبدتُها عقب اطّلاعي الفضولي على نصوص عُلوية، أخذتها مندفعًا بقوة، وسبرت ما استطعت أغوارها ومكنوناتها. ولا أخفيكم أنّ الاطّلاع هذا قيِّض لي وتيسّر أثناء مرض ألم بي، شخّصه الطبيب في صنف مّا من ضيق التنفّس، وقال إنَّه في حالتي «بسيكو ـ جسدي»، ونصحني بجوّ الجبل.

عملت بالنصيحة، فصعدت إلى جبل قريب، مكثتُ فيه أيامًا مفكِّرًا في لغز العجوز المذكورة أعلاه، قانعًا بالقوت الزهيد ومتوغِّلاً، ما قدرت، في الزّاد الروحي. غشاواتٌ كثيفة انجلت عندئذ عن عينيَّ، وأقفالٌ صدئة أخلت صدري، فبتُّ لا أتنفَّس الصعداء، ولا أُمسك بتلابيب الوجود، ولا أتلقّى شآبيبه برداً وسلامًا إلاّ في رحاب الهواء الطلق العلية، بعيداً عن أقاليم الدب واللغو المنتشرة، بعيداً عن تقاليد تبديد النسغ والمعنى بين تراكم الأيام اللامجدي وضغوط الهموم والأوهام الصغرى.

هكذا نويتُ، بعد أن تماثلتُ للشفاء، أن أفكَّ ارتباطي بوظيفتي في وكالة بنكية وبزواجي من امرأة عاقر لاهية.

حررتُ لرئيسي رسالة مطوّلة في طلب تقاعد مبكّر، وشحنتها بالذرائع والتبريرات من كلّ نوع، ونمّقتُ ألفاظها وزوّقت. وحين تقدّمت بها إليه، أعرض عنها وأمرني أن أوجز موضوعها في كلمة أو كلمتين، محذِّرًا إيّاي أن لا تكون في طلب انتقال أو ترقية. ولولا خشيتي من استثارة تهكُّمه واستهتاره لأعلمته أنّ الترقية الروحية هي اليوم مسعاي الأول ومبتغاي المطلق. لخصتُ له طلبي فقال: «بل أنت تريد الاستقالة مقابل تعويض يحدِّده مجلس الإدارة». وأضاف وأنا أعبِّئ استمارةً في هذا الموضوع: «... حسب ما سمعت، عقلك تعبان وحتى صحتك... ارخِ الحمل واللّه لمن زار وخفّف»..

أما زوجتي المجذوبة دوما إلى مساحيقها وآخر موضة في اللباس والأغنية، فقد جرى بيني وبينها حوار هادئٌ بنّاء، وكتبتُ لها عقد تنازلي عما أملك: بيت صغير مؤثّث وسيارة وكلب بوليسي في أرذل العمر. سألتني وقت الوداع إن كنت أرحل إلى غيرها أو أتزوّج سواها، فأجبتها بلسان مالك بن دينار الصوفي: «لو استطعتُ لطلّقتُ نفسي». وبغتةً صرختْ في وجهي: «بل أنا التي أطلّقك... بالماء والشطابة حتى قاع البحر»... طأطأتُ

رأسي وكظمت غيظي، وانسحبت مهرولاً قبل أن تغلظ لي الكلام وتولول مستغيثة بالجيران، أو أن تستعدي عليّ - كما فعلت ذات مرة - إحدى جمعيات الدفاع النسوي، المتكاثرة الناشطة في هذا الزمان.

تخفّفتُ من حملين أحلاهما مر: حمل وظيفة تفرغني كل يوم من إنسانيتي، وحمل زواج يورّطني بالتدريج في دوائر الغثاء والسخف. أمضيت أيامًا في فندق فقير ريثما أسوّي أمورًا وأصفيَ أخرى، حتى إذا اشتدّ عليّ ضغط الجزئيات والذرات المفردة المفصولة، أخبرت بخروجي آخر خلٍّ مهتمّ بي، متذرّعًا بكون مخاض الإلهامِ أتاني، ولا حيلة لي لردّه أو استمهاله؛ ثم ذهبت أنشد الجوهر والأس، لا أبغي عنهما بدلاً. قطعت طوال اليوم أميالاً صعودًا؛ فلمّا هوّد الليل وأنهكني الضّنى، قصدتُ طللاً فآويت إليه، وبسطتُ لحافي ونمت ملء جفوني.

عند انبلاج الصباح فوجئت بأوليس (كلبي البوليسيّ، كما سمته امرأتي الطالق) وهو يحرّك ذنبه ويلامسني كأنّه يستأذنني في مرافقتي. أمرته بالعودة من حيث أتى فلم يطعني. نهضت آخذًا عصا التسيار، عاقدًا العزم على نسيانه وإهماله.

ظللت على تلك الحال زهاء أسبوع، أتوغَّل ما استطعت في ابتعادي، والكلب يظهر لي ويختفي. وحين وصلتُ إلى مقام جبليٍّ عالٍ مهجور قررت: هنا أُلقي عصايَ ورحلي، وكان ما قررت...

هنا في هذا المقام، استحليت الساعات الطوال في مجالسة الفكرة، وناضلت آناء النهار وبعض الليل مفرغًا ما في وسعي كيما أحرم أمسيَ المنهار، المتقطّع الأوصال، من أن يكون له غدٌ واستمرار. وبدا لي في عزّ نضالي أنّ لا شيءَ عظيم يتأتّى من دون شوق مطلق، وبدت لي المحيطات الآدمية في المقابل مفعمة بالفتور والرياء، وبالعلائق المحسوبة أو الخربة، لا رجحان فيها إلاّ للقبح في أغلب العقول والأفعال، ولا مكان فيها لمن كان مثلي ذا حساسية فائرة ووجعٍ في عشرة الغير. وفي محيطات كهاته - وهي التي لم أعرف وأجرّبْ سواها - كيف لا يصطدم الشوق بالحواجز والمثبطات السالبة المعيقة، فينتهي إلى الاحتراق الفجائيّ السريع أو الوئيد المتأنّي.

لاتّقاء شرّ ذاك الاصطدام، عملت في مرتفعاتي على تجديد النظر في بعد الزمان، بغيةَ جذبه إلى السعة والخفة، ففاوضت ملك الموت في إعادة جدولة أجلي، معولاً على الحِمْيَةِ في مأكلي ومشربي، وعلى ترويض نفسي على المحاسن المثلى، وترييض جسمي بالمشي وتسلق الصخر وحمل الحجر.

وذات يوم، وأنا في غمرة نشاطي الرياضي، اكتشفت بالمصادفة غارًا معزولاً بين صخرتين عظيمتين موصولتين بسطح سامٍ فسيح، سطحٍ يطلّ جنوبًا على بقيع مشحون بالشجر الغامض الكثيف، وشمالاً على بحيرة متموّجة المياه، لعلّها ملتقى وديان ظاهرة أو خفية.

قلت في نفسي: الأرض أرض اللّه، وهي لمن يحرثها ويعمرها... توكّلت عليه، فقضيت أيامًا أخلص باطن الغار وأنقّيه من الحشائش والأشواك والعشب الطفيلي ومن الحشرات أيضًا أكثرها الخنافس والجعلان. وبعد أن وفقت في تهيئة تربته وتوسيع قطر مدخله طمعًا في حصة من نور النهار أكبر، أثثته بما قل ونفع واقتنيته من أقرب قرية إليّ: مطرحٌ خشبيّ وأغطية ولحاف، خابيةٌ ماءٍ ومغرفة، مائدة عليها مأكولي وكتبي وأوراقي ومصباح. ولمّا أتممت شغلي، طاب لي واللّه المقام في الغار وما جاوره، حامداً الرزاق الوهّاب على اصطفائي لنعمة مباركة لم تكن في الحسبان.

الغارُ لي باطنه ملاذًا، آنس فيه بالكتاب خير جليس، وأنام نومًا لذيذًا تجود عليّ بعضُ حلقاته برؤى شائقةٍ عميقة، أصحو على لُمعها وبقاياها فأدوّنها...

والغار لي سطحه منظرةً، ومحيطه مرتعًا أحلم فيهما يقظًا، وأتأمَّل سائلاً باحثًا ما وسّعني التأمّل، تصحبني تناوبًا زقزقات الطير وهباتُ الأنسام والريح الطيّبة.

كذلك أضحت حياتي الجديدة، يا إخوتي في الأسر. رقَّ لي معها اقتناص الدلالة والمعنى، وراقت في وجداني وإدراكي صورٌ وآياتٌ يجود بها المطلق...

لكن إيّاكم أن تظنّوا أنِّي أدرت ظهري كلّهُ للمدينة، وقطعتُ صلتي بناسها تمامًا؛ والحال أنِّي في كلّ مرة نزلتُ إليها للتزوّد بالمؤونة، تقصيتُ أخبار الأهل من البعداء والأقارب. وهؤلاء (وقليل منهم تذكّروا وجهي ذي اللحية السائبة المحدثة) أعلموني أنّ الأحوال سيئة بل من سيِّئ إلى أسوأ، وأنّ أولي الأمر ماضون في غيّهم وبغيهم، لا يرعوون ولا يعبأون. ولست أخفيكم يا إخوتي أنَّني، رغم زهدي في السياسة وساستها، ظللت أحلم من حين لآخر، نائمًا أو يقظًا، ببقاء إحدى عينيَّ بعيدَ موتي مفتوحة، ولو إلى حين، على تداعيات المآسي الكبرى في دنيانا، وعلى مآلات رجال صرّفوا في حكم الناس شرورًا شتّى؛ رجال غدوتُ ممن يرون في سقوط رؤوسهم فاتحةَ يُمنٍ لساكنة البلاد وبشرى؛ رجال لا أملك اليوم إلاّ أن أدعوَ عليهم

فأقول: يا ربُّ دمّر طغيانهم، واجدع أنوفهم، واقطع دابرهم، ولا.......................................

....

ما الذي يجعل المعرض عن عشرة الناس يحصل بين أيديهم ولو فرَّ وأدبر؟

سؤال أخذ يؤرّقني على ضوء ما بات يحدث لي كلّما اضطررت إلى قطع المسافة ذهابًا وإيّابًا بين غاري والمدينة أو إحدى القرى القريبة.

فمرة اعترضتني جماعة من المرضى والمعوّقين، وترجوني أن أبرئهم أو أخفّف عنهم آثار معاطبهم. ولما أعلنت عجزي عن الكرامات والخوارق طوقوني منكرين، فلم أفلت منهم وأفرّ إلاّ بحيلةٍ وجهدٍ جهيد... غير أنّ واحداً منهم تبعني متخفّيًا، ثم برز لي قرابة سفح جبلي، وطلبني مهدّداً إمّا أداوي نفسه الأمارة بالسوء وإمّا يترك هذه النفس تتسلّط عليّ. شمّرت على ساعدي وقبضت على عصاي، فنبّهته أن لا متاع لي ينفعه ولا حقّ له في قتلي. ارتعدت فرائصه وتميّز غيظًا تهيؤا للهجوم عليّ. لكنّي سارعت إلى إطلاق صرخة منكرة أفقدته توازنه، وسددت في الفراغ لكمات وهمية، فما كان منه إلاّ أن تراجع القهقهرى وعاد هاربًا من حيث أتى.

ومرة ثانية: في الغابة التي تفصلني عن جبلي صادفت شابًا وسيمًا تائهًا على وجهه بين الفُرج والأشجار، لاهثًا وراء طيف متمنّع أو سراب. حالته المتوتّرة الغريبة كانت كحالة المتيم الولهان...

استوقفني يسألني هل رأيتها...

قلت: من؟

قال: التي فتنتني وملكت عليّ جوارحي وقلبي وهمتُ بها عشقًا!

أجبت دهشًا أن لا...

قال: ومن غيرك يدلّني عليها يا وليَّ النباهة والفهم؟ إنِّي واللّه منذ الآن مريدك حتى تنجز لي مبتغاي، فألاقي من أهوى...

نصحته أن يقصد سواي ويسألني عن ضالته المنشودة في محيطها بين الأقارب والجيران.

شهق شهقة وقال: لا محيط لها ولا اسم ولا عنوان. فأنا لم أرها إلاّ في النوم، ودلتني عليك عرافة حتى تسعفني وتشدّ أزري.

تذكّرت، وأنا أنصت إلى الشاب مشدوهًا، خبرًا مماثلاً رواه في **طوق الحمامة** ابن حزم الأندلسي في «باب من أحب في النوم». فكان عليّ إما أن أحذو حذو هذا الإمام الفقيه، فأنهر الشاب وأسفّه حلمه وحاله، وإما أن آخذه باللين والرفق، فأعظه بمتابعة البحث عن معشوقته لعلّه يلقاها قلبا وقالبا أو في صورة قريبة منها. إيمانًا منّي بأفضلية العيش الباحث العاشق على العيش الخامل القانط، قدمت الخيار الثاني فأبلغت الشاب فحواه بوجيز العبارة والإشارة. فرِح وانشرح. ووعدني بالاحتجاب عن سبيلي ما إن أحلّل له تملّك غاري في حالة رحيلي عنه، فحلّلت.

ومرة ثالثة سقطت في كمين نفر من بربر زيان المستعربة، فاعتقلوني في قريتهم بقمة جبل، وعرضوا عليَّ حريتي مقابل أن أحكم فيما شجر بينهم، وتشبّت كبيرهم بلحيتي حالفًا باليمين المغلظ ألا يتركها حتى أقبل شرطهم. والنازلة أنّ مترفًا غريبًا بنى لهم مسجداً كان الأولَ في قريتهم، وذلك لقاءَ تمتيعه بأصواتهم في حملته لنيل مقعد في مجلس نواب البلاد. وتبيّن لهم بعد أن تمت الصفقة أنّ الرجل من أباطرة تجار الحشيش، فاختلفوا اختلافًا شديداً في صحة الصلاة المؤداة في مسجد مبنيٌ بالمال الحرام...

هل لي من مخرج غير الإفتاء بما يبدو لي عينَ الشرع واليسر، متوكّلاً على الذي بيده المفاتيح والحلول كلها؟!

قلت: إذا كان خادعكم ملّككم الجامع بعقد موثّق صريح، فلا جناح عليكم أن تقبلوه حتى تصلّوا فيه للّه وتدعوه أن يغفر لكم ويتوب عنكم. «إنّما الأعمال بالنيات، كما قال سيّد الخلق، وإنّما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى اللّه ورسوله فهجرته إلى اللّه ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه». فانووا الخير تجدوه، وللمحجم عن دخول الجامع أن يعبد الخالق في محل غيره أو في الخلاء.

كبّر القوم وصلوا على الرسول كثيرًا، وبشوا لي وهشّوا، وذبحوا لي عجلاً وأكرموني يومين. وحين هممت بالرحيل في اليوم الثالث، تناوب كبراؤهم على إخباري بحالة شيخ قبيلة مجاورة، يعذّب شابًا في سجن بسبب اعترافه العلنيّ برؤيا منامية نكح خلالها إحدى زوجات الشيخ الأصغر سنًا، والأرفع شأنًا، والأغلى مهرًا. وكان العرف في القبيلة أنّ عضواً منها، ذكرًا أو أنثى، إذا حصل له مثلما حصل للشاب، ضَمِنَ لنفسه الطهارة والصفح بإفشاء سرّه أمام رؤوس الأشهاد. وطالبني الكبراء بالإفتاء ضدّ الشيخ حتى يفرج عن الشاب، تنفيذًا لما

جرى به العرف في القبيلة. قيّدتُ لهم بطاقة أفتي فيها بتحرير الأسير ثم بتحريم عرف ما له في شرع اللّه من أصل. وأضفت أنّ من الأسرار ما لو فشت لبثت بين الناس الشقاق والفتنة والشك. وطلبت أن يملوا بطاقتي نيابة عنّي إلى المعنيين بالأمر. رحبّوا بما بدا لي واعتنوا، ثم عرضوا عليّ الإقامة بين ظهرانهم قاضيًا معزّزًا مبجلاً، فاعتذرت عن ذلك متذرّعًا بعبءٍ مشاغلي وكثرتها. تأسّفوا وقبلوا بإخلاء سبيلي بعد أن رغبوني في عيادتهم متى شئت، وشحنوا قفتيَّ خبزًا وعسلاً وسمنًا وزيتونًا وقديداً.

لبّيك يا غاري وسعديك!

هرولت نحوه متجنّبًا مكامن البشر، متوسِّلاً إلى اللّه أن يهديهم ويرحمهم.

تهالكت على لحافي كيما أستريح من أتعاب يوم اخترمته مغربات ونوازل.

ناجيت نفسي: هذا ما جنته عليّ لحيتي! فمكره أخاك لا بطل...

فكرتُ برهة أن أخصّ اللحية بالحلق، لكنِّي أحجمت خوفًا من تبعات أدركها وأخرى أجهلها، وراهنتُ على التنكّر

والتخفّي كلّما دعتني الحاجة القصوى إلى محاذاة الناس وعبور أحيائهم.

قضيتُ، يا إخوتي، ما شاء اللّه من الأيام والليالي بين غاري وخارجه بقليل نحو أدنى الماء والشجر، أو على السطح حيث أصلّي وأُلقي نظرات حرّى على المدى، مشوبةً بقدر غير يسير من الحيطة والحذر. وأوليس يظهر لي في زيارات قصيرة، كأنّما ليطمئنّ عليّ، ثم يختفي للبحث عن قوّته وقضاء حاجاته.

عن واحد مثلي يحيا كما أحيا، لأغرو أنّ أطباء النفس يصنِّفونه في خانة المصابين بالمالنخوليا أو بالجنون الانهياري.

لكن ليُسمحْ لي أن أبرِّئ نفسي من قولهم ذاك. والحجّة أن برنامجي اليوميّ، صدّقوني، حافل دومًا بالأنشطة الكثيفة المتنوّعة: تأمّلات وتقديرات حول موضوعات شتّى، فانتزمات قوية برؤيات ملوّنة عديدة، مشاريع غنية، معقّدة، لها في ضروب الخيال باع وأيُّ باع، وفي دروب الهذيان حصص وصولات.

وعليه، يخسأ ويهرف بما لا يعرف من يظنّ أنِّي إنسان سليب المحاسن، عديم الشغل والروزنامة والملفات.

طبعًا قد يحدث لي أحيانًا، كأيّ بشر، أن أجفّ وأنحسر. لكن هيهات أن أتعبّد التذرّع بهذا للانكماش وتبليد الحواس، بل أراني عندها أتعاطى لنشاطيَ الأثيرِ الآخر، مثلاً: إعادة النظر في أعتى مفارقات السفسطائيِّين؛ مثلاً: إحياء أعوص القضايا الكلامية والماورائية وأغمضها، من صنف ما لا يمكن حلّه إلاّ بتحليله في الطبخات الكيماوية المتلفة، وغيره كثير... ولعمري إنّ هذا كلّه ممارسة للفنّ أخرى.

الإدمان على الخلوة، يا إخوتي في الأسر، والإمعان في تأمّل الوجود والكون، بالإنصات والفهم، كلاهما يهبُ للمتوحّد المتمرّس حساسية يقظى متوهِّجة، ويقوِّي حواسه ويشحذها حتى تفرز له حاسة سادسة؛ كلاهما ينقّحُ فكره ويمدّه في سبر أغوار المعاني وتحريرها بقدرة بعد أخرى.

طالت خلوتي، حتى إذا نفذ زادي وتضوّرت معدتي جوعًا نزلتُ إلى القرية أقتني ما أسد به الرمق لبضعة أيام أو يزيد. وقبل أن أقضي مآربي أوقفتني فتاة مجلببة ملثمة، واستفتتني، شاكيةً مستعطفة، في أمر مشغّلها ـ وهو كاتب روايات جنسية سافرة ـ هل يجوز شرعًا أن ترقن له نصوصه مقابل أجر تعول به أسرتها، أم أنّ عليها الإعراض عن ذلك ولو كلّفها فقدان شغلها... أجبت الفتاة المسكينة متأوهًا: «هذا زمن العسر والأزمة يا ابنتي، فعضّي على مصدر رزقك بناجذك ولا تفرطي

فيه إلاّ أن تجدي الأفضل. أما النصوص فارقُني مبناها وضعي بينك وبين معناها حجابًا غليظًا. ﴿قلْ لن يصيبنا إلاّ ما كتبَ اللَّهُ لنا﴾ »...

برقت عينا الفتاة انبساطًا وانشراحًا، ثم استفتتني في أمر صديقتها التي تعمل كاتبة في مصنع للخمور، فقلت بجواز فتيايَ على الحالتين لتشابه العلة، وبعدها أردت السير إلى حال سبيلي قبل أن تسألني في أمر آخر قد لا أقدر عليه. غير أنَّها لاحقتني متوسِّلة إليّ أن أبلّغ فتيايَ هاته إلى المعنية بها حتى تصدّق وتطمئنّ أكثر، فيعظم النفع والأجر. قلت لها كيف؟ فأشارت عليّ أن أتبعها جاعلا بيني وبينها مسافة. تبعتها في دروب موحلة ملتوية بين دور واطئة من حجر وطين أو من صفيح. وبعد لحظات استثقلتها وقفت المتبوعة على باب معتم لوّحت لي بحث السير إليه. ولما أدركته ظهرت خلفه امرأة محجّبة في متوسط العمر، فأخذت تمدّ يدها إليّ وتجذبني من كتفي مترجّية بصوت محتشم خفيض أن أشرّف البيت وأباركه. لبيت طلبها متردّدًا. وما إن دخلتُ حتى غلّقتِ الباب من خلفي، فوجلتُ واضطربتُ حين أدركت أنّ الفتاة مستدرجتي لم يعد لها من أثر، ولحظت المرأة تنزع حجابها وتسرّح شعرها وتخلع بعض ملابسها بحركات مغرية مشبوهة، ثم إنَّها وهي تتعطّر، دعتني إلى مجالستها حول صينية الشاي. امتنعت بحزم

بيّن وطلبت الانصراف على الفور. غمزت بعينها ولاكت علكها وقالت هازئة مستهترة: «ليس دخول الحمام كالخروج منه يا فقيه.. حسبي اللّه.. رجل أنت بهذه اللحية وتخاف من امرأة!». تيقّنت أنِّي سقطت في فخ وأنّ المرأة أمامي مومس أو مخبرة... وفيما أنا أفكّر مليًّا في الإفلات من موقفي الصعب بلا فضيحة، انقضت عليّ كلبؤة جائعة فشرعت تنتف لحيتي وتخدش وجهي وصدرها وتشقّ ثوبها، وأنا معتصمًا بالصمت والصبر أحاول التخلّص منها ومن فمها المخمور ما استطعت. وحين توفقتُ فتحتِ الباب مولولة باكية مستغيثة...

ولكم، يا إخوة الأسر، أن تتصوّروا العاقبة: رجال شداد يقبضون عليّ، تحقيق واستنطاق مرهق لم يكن لروايتي فيها وزن أمام رواية المرأة المارقة، المعزّزة بشهود الزور وآثار اعتداء مزعوم منسوب إليّ...

وأنا الآن واقف أمامكم، حليقَ اللحية والرأس، كما من باب الشماتة والتنكيل فعلوا بي...

أنا الواقف أمامكم، ألصقوا بي تهمًا عديدة لفّقها قاضي التحقيق والمدّعي العام وأعوانهما وصاغوها قلبًا وقالبًا، وقالوا إنِّي تغوّلت... ولا حول ولا قوة إلاّ باللّه، عليه توكّلت وإليه أُنيب...

في صك التهم: الهجوم الجنسيّ على امرأة مغلوبة بنية اغتصابها؛ إطلاق لحيتي ضدا على تحريم الرئيس المعظم لذلك؛ تطاولي على الفقه والقضاء وإفتائي بما ليس لي به علم؛ احتلالي اللاشرعي من دون عقد ولا ترخيص لغار أثريّ هو ملك خليفة اللّه في أرضه...

أكفّكم يا إخوتي: اللهم يا محييَ الأرض بعد موتها، ويا مخرج السنابل من البذور، عوّضني عن شعري ولحيتي أطول وأكثف منهما...

اللهم يا ربّ ....


قصة عيسى بو وريقات

هو أنا عيسى بو وريقات:

قصتي، يا إخوتي، في طبيعة الحرفة التي أدّعيها لنفسي: التنزُّه والتجوال. وقيل لي إنِّي أرمز بها إلى كوني عاطلاً، وبالتالي شاهد عيان على عجز أرباب الحكم عن إنعاش الشغل وتوزيع الخيرات بالقسطاس. فحقيقتي إذن، أنا أكحل الراس، كما أوّلها خصومي والراغبون في عزلي، أنّ عطالتي عبارة عن هواية تقضي بحثّ عديمي المبادرة والشغل على الوقوف عند حيطان المدينة أو الدوران بين رحابها وأرجائها تبرُّجًا وتظاهراً.

لم أكن أنفي ذلك التأويل، بل صرت أقابله بعبارات المهادنة والتيسير، المأخوذة عادةً عند المتلقين على محمل المصادقة والتقرير. لكن أمري أخذ يعتاص ويعصى ما إن بلت هوايتي تيك وانحسرت، فغدوت أكسر الأدوار وأعناق الزجاجات، وأخترق الجدران، وأخرج ولا أفتر عن الخروج، حتى نسبت إليَّ نظرية في الخروج عجيبة، لم أدرك ضرر نسبها إليَّ

وجريرتَها عليّ إلاّ بعد أن صارت الأصابع تتّهمني بأنّي خارجي، أدعو إلى بدعة الخوارج المشهورة. ودفعًا للتهمة، لم أجد بدًا من أن أدخل سوق رأسي، خصوصًا بعد أن ضيقتْ عليَّ الخناقَ شرطةُ المدى البراني، فاختبأتُ واحتجبتُ عن الأنظار مارًا بين الدهاليز ومن خندق إلى آخر، واضعًا على كلّ باب أجتازه تساؤلاً يؤرّق كلّ ذي كبدٍ وبصيرة: ماذا يضيركم أن أغيب وأختفي؟ أتحبون مطاردتي حتى في أقصى غربتي وانهياري؟

أما المتربّصون بيَ الدوائر فزعموا، استناداً إلى تقارير شرطة الاختصاصيين في شؤون العزلة والخلوة، أنّ الأمر، خلافًا لما أدّعي، يحمل معانيَ وأبعاداً رمزية خطيرة، لم أنكر، بعد إلقاء القبض عليَّ في زريبة مهجورة، أنَّها في جملتها وزبدتها محاولةُ نسج الوحدانية بين الثبوت والانصهار في الحياة المثلى، بعيداً عن مناطق الصفر في الوجود. وضُبطتْ في جيوبي وريقات تالفة محرّرة بالسماق كالأحراز. وظهر بعد وضعها على المجهر أنَّها مسودة بفقرات تعتور بعضها جلطاتٌ وانخرامات، فأرغمتُ على ترميمها وتصحيحها، حتى إذا استقامت، ولو بكلام ليس من أصلها، قالت:

الأولى: إنِّي من كثر ما اخترمتني الشكوك من جهاتي الست، صرتُ أقول: كأنِّي خلقتُ لكي لا يكون لي في ربوع

الجزم واليقين محل أو مربض. وصرت أنشد مع رهين المحبسين، أبي العلاء شيخ المعرة:

أقصى اجتهادي أن أظنَّ وأحدسا وأما اليقينُ فلا يقينَ وإنما

فكلٌّ إذن، وكما ترون، ميسرٌ لما خُلق له!

الثانية: لم يبق من أسباب وقوفي أمام الحياة إلاّ سببٌ واحدٌ لا شريكَ له: إنَّه خوفي أو قل خجلي من أن أكبوَ وأخرَّ ساقطًا، كثورٍ مزبدٍ نازف أنهكهُ النهشُ والضنى.

الثالثة: كلّما لجحتُ في السؤال عن سرّ صمودي أمام تصاعد الردوم والعلامات المنذرة، اهتديت بعد لأيٍ إلى ما يشبه مُولّدًا حراريًا في صدري، مشدودًا بشعرة إلى رئتيَّ وقلبي.

لذا فإن أخوف ما أخافه اليوم أن تتقطّع تلكمُ الشعرة، إما بفعل اشتداد الضائقات عليّ، وإما بسبب نزيف داخلي ناتجٍ عن تعاظم خوفي من انطفاء المولّد ذاك.

الرابعة: من مياه هذه الحياة العكرة، تراني لا أغترف غير أوحال لا تبرَ فيها ولا ديباج. فدرءاً للاختناق كيف لا أعمل بوصية ماركوس أوريليوس، الإمبراطور الحكيم: «*أنظرْ إلى حركة الكواكب كما لو كنتَ تدور معها*»؟

الخامسة: ليس همّي أن أمسك سرّة السماء أو سرّ السعادة السرمدية، لا ولا أن أجد إكسير صناعة الحجر المكرّم أو المعادن النفيسة، بل همّي، كلّ همّي، أن أبرهن بالحجّة والمثال على أنّ أورامنا وكبواتنا في زماننا هذا نتاح حتميّ لسوء بصيرتنا وزلاتنا الفكرية. وهذا بعض بيانه: ....

أمام منطوقات وريقاتي، يا إخوتي في الأسر، لم يتعب المفكّكون والمؤولون المأجورون في حل شفراتها ورموزها، ولم يتردّدوا في ردّ دفائنها وهواجسها إلى رغبة شديدة أكيدة لديَ في إعادة فتح الزمن البهيّ المجدي، الصاعد ترياقًا لخسارات الزمن الآسن المترسّب في مستنقعات الحياة المسدودة...

وجاءت الافصاحات والتوضيحات مستندة إلى آخر تقارير الشرطة لتقول: إنّ المدعو عيسى بو وريقات إنّما يتستّر بالحلولية وفلسفة وحدة الوجود ليشيع بين الناس نظرية الحزب الواحد والفكر الوحيد ودكتاتورية المعوزين والعمال والعبيد. والحجج على ذلك، الرمزية منها والمادية، أنّه كان لا يمشي إلاّ بنعل واحدة، ولا يصفق إلاّ بيد واحدة، ولا يعشق إلاّ فصلاً واحداً، ويدعو إلى الزواج بالواحدة.

على ضوء تلك التقارير وهديها تنفس قاضي التحقيق الصعداء، وأملى على كاتبه كلاماً متراصًا مشحونًا ذيَّله بقوله هذا: الآن زال الغبار عن قضية المتّهم، وأصبحت التهمة اللاصقة به واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار...

أما وكيلي العجوز فقد طلب لي العفو والصفح بصوت متهدّج متخاذل يكاد لا يسمع... استأذنت القاضي في الدفاع عن نفسي بنفسي، فأذن لي بعد أن تلكأ وشاور أعوانه همسًا وأمرني بتوخي الإيجاز والإدغام. وقفت وقفة الصامد الصبور، الواثق من حقّه وقوامه، ومعوّلاً على واهب المدد والمد، الذي بيده المفاتيح والحبال كلّها، قلت:

ماذا أقول أنا المحشور في زاوية الأنفاس المعدودة والفعل المحال؟

ماذا أقول وقد وضعتموني في خضم فصامكم وهواجسكم بين المطرقة والسندان؟

وازنا كلامي أزعم أنِّي من طينة غير طينتكم، أرى ما لا ترون وأعقل ما لا تعقلون. طغيكم واللّه ينال من صحوي وفطنتي، ولن تنالوا به تواطؤي وانبطاحي. زهدي في السياسة زهد فيكم وفي ما يجيء منكم؛ لغتي، كعضوي التناسليّ، وحقّ خالقي لن أخصيَها ولن أبدّلها ما حييت... كلّ شيء حي

ينشـأ وينمـو خـارج سلطانكم وضـدا على مـا أنتم فـيـه تخوضون... بقائي ـ كبقاء أمثالي الكثيرين ـ كان ولا يزال شوكة في حناجركم، وحتفي، لو قدرتموه، حجة للأحياء عليكم أنتم يا أعداء العدل والنضارة والحياة.

أرى القاضي يصحو من غفوته بعينين جاحظتين، وأوداج منتفخة وفرائص مرتعدة. فالصمتَ الصمتَ قبل أن تعلوَ مطرقتُه عليّ. اللهم إنِّي قد بلغتُ ما تيسّر، وما خفيَ ولم أقله أمضى وأعظم...


قصة بدر الدين الساحلي

هو أنا بدر الدين الساحلي:

قصتي، بدأت يوم تولّي مدير عصري جدا مقاليد معمل لصناعة الساعات، فأقدم لتوّه على تسريح أعداد من الساعتيين، بدعوى تنفيذ تعاليم سياسة التقشّف وإعادة الهيكلة، المملاة على المقاولات كلّها من طرف أرباب الدولة وحلفائهم الأعاجم.

كلمات المدير الجديد ما زال دبيب حذلقتها وعُجمتها يطنّ في أذني وأوصالي، منها: مارشي، شالانج، ليفتنك، وأخرى لعلّها تعني في لغة الضادّ: تقويم المستوى، مرونة، تنافسية، إلخ. وكلّها كلمات ذات تنويعات لغوية والمعنى واحد: نعم للمقاولة المخفَّفة الفعّالة، لا للمقاولة البادنة الرزَّاقة، أو بعبارة واحدة: التسريح التسريح!

كان بين المستأصَلين كالطفيليات أو الزوائد، المطرودين بتعويض رمزي، هذا العبد الضعيفُ الماثلُ قدامكم، هذا الطويلُ النحيف، الخجولُ الأسود، المسحوقُ الأعزل.

عند ذاك تعست حالي وساءت، فأمسيت أدخل على زوجتي خاليَ الجيوب والوفاض، فآمرها بالزهد وشدّ الحزام والإكثار من الصوم، حتى إذا صارت المسكينة كالمسمار من شدة الضمور والهزل طالبتني، أنا المسرّح رغم أنفي، أن أسرّحها بإحسان، كيما تجرّب حظها في دروب التعيش أخرى، فلبّيتُ مطلبها مكرهًا وفي قلبي غصة. ثم غدوتُ أنشر من حولي أقوالاً تفيد أنّ البطالة كفر بكرامة الإنسان، وأيُّ كفر! وردّة عن الحقّ في الحياة كبرى تصرّف أضرارها السالبة في الحال والمآل على النفوس والأجسام.

ولا يظنَنَّ ظانٍ أنِّي نفضت يديّ من أمر مطلقتي وانتهيت، بل ظللت أتسقّط أخبارها حسب الاستطاعة. ومن آخر ما علمته بواسطة إحدى جاراتها أنَّها تزوّجت من جزار ميسور، ذاقت في كنفه شتى أنواع الإساءة والعسف، إذ كان كثير الإجهاز عليها بالضرب المبرح والصفعات المنكرة، حتى أنَّها وهي حامل أجهضت، فمرضت وذبلت ولمّا تنه ربيعها الثالث. ومنذ عهد قريب علمت أنّ هذه المرأة المسحوقة غابت تمامًا عن الأنظار، ولم يعثر لها على أثر يذكر... فتغمّدها اللّه برحمته إن كانت انتقلت إلى جواره، وكان في عونها إن هي ما زالت حيةً ترزق تحت أي سماء أو في أي ملجأ.

أما ملف الدعوة المرفوعة ضدي، ففي شأن نظرية منسوبة إليّ تقول إنّ قصة خلود الروح مكسب طبقي لفقراء الأرض ومعذّبيها؛ كما تؤكّد أنّ كل صدقات الأغنياء، كيفما كانت مسالكها وأشكالها، إنْ هي إلاّ حيلةٌ ماكرة يتّقي بواسطتها الأثرياء حالات الفقر القصوى، وبالتالي غَضَبَ الفقراء وهياجهم، فيتهيأ لهم أن يضمنوا للبلاد التي هم أسيادها وكسّابوها ملامح الأمن والطمأنينة، حالة سمّاها أقطابهم ورسلهم « الهرمونيا »، أو من باب التبسيط « الدنيا هنية ».

وقد ألقِيَ القبضُ عليّ أنا المنعوت بالمتكالب على الفقراء، المتآمر على السلطة، وحالتي أنِّي أخطب في جموع من العمال والعاطلين، وأخوض في شرح مأثورات وأقوال، أولاها: قال عليه الصلاة والسلام: « *إيّاكم ومجالسة الموتى؛ قيل ومن الموتى يا رسول اللّه؟ قال: الأغنياء* »؛ وثانيها: *قال موسى « إلهي أين أبغيك؟ قال: عند المكسرة قلوبهم* »؛ وثالثها من بنات أفكاري ورحيق أوجاعي: « أمام المرضى الكبار، المتألمين من داء عضوي عضال، أو من انهيار نفسيّ كاسح، أمام صراخهم واستغاثتهم، من ذا الذي لا يحلم واقفًا، ويبغي بجوارحه كلّها أن يصير وليًّا ذا معجزات وكراماتٍ نافعةٍ منقذة »!؛ ورابعها: . . . .

ألقيَ القبضُ عليّ، لا لأن مروياتي وأقوالي منحولة أو عديمة الصحة ـ ولو أنّ ظلاميين حاولوا هذا الزعم ـ بل لأنّ المتحلقين السامعين صاروا يتلقونها بالخشوع والتأثّر، ويحفظونها عن ظهر قلب. وحين تناوب على استنطاقي المحققون، كنت لا أزيد عن ترديد: «*إياكم ومجالسة الموتى! قيل: ومن الموتى يا رسول اللّه؟* قال: *الأغنياء*». وفي طي ترديدي كنت أبث إلى أبي ذر الغفاري شكواي لعجزي عن الخروج على الناس شاهرًا سيفي، أنا المعدمُ بين حشود المعدمين، أنا المدركُ أنّ سيفي، لو خرجتُ، إما يرتدٌ إليّ خاسئًا وإمّا أُبعج به بعجًا... لكن بالرغم من المحن الصماء والعقبات الكأداء، عندي كلمة خارقة للعادة نيرة، صدعتُ بها أمام المحكمة ولا أخشى في اللّه لومة لائم، فاسمعوها، يا إخوتي في الأسر، وعوها: ....

أما المخبر المكلّف بي فلي معه حكاية طريفة غريبة. فقد أوقفني ذات يوم وسألني متلطِّفًا: ألست تحبّ الفقراء وتدافع عنهم؟

قلت: بلى، وأفعل قدر جهدي.

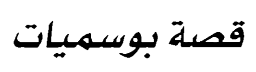
قال متوسِّلاً: إذن ارحم فقري وزد في لقمة عيشي حتى أعول أهلي، وهم بعدد فريق كروي.

ولما رأى علامات الاستغراب عليّ أردف قائلاً: فدني، عافاك اللّه، بما يغني تقريري عنك ويفتح لي باب الترقية على يديك.

قلت: ما أعبّر عنه وأفعله لا يخفى عليك ولا على الأكابر.

قال: نعم... لكنّي أطمع في أن تسجّل لي بصوتك أنّك مع رهط من الفقهاء والمتصوّفة تجتمعون بظاهر المدينة في ليال معلومة، فتسلخون الساعات الطوال تدعون على الرئيس الجنرال...

قاطعته وهو يمدّ إلى فمي آلته فقلت: نحن ندعو على كل المفسدين والمتجبّرين في الأرض، رعاة أسباب الشقاوة والعجز بين الخلق... وإن أرادت خبراً آخر فها هو:...............


قصة بوسميات

هو أنا بوسميات:

علامات استفهام عديدة على تاريخ ولادتي ومهنتي، بل وعلى اسمي ونسبي الحقيقيِّين، حتى إنِّي لم أعد أُعرف إلاّ بالكنية الملصقة بي: بوسميات.

في دوائر البصاصين وجماعي الأخبار كنت، أنا المكنى بوسميات في لوائح الخطرين، ممن يتبوؤون موضع الصدارة. اتّهمت بأمور شتّى، لعلّ أبرزها أنِّي متكلّم زنديق، يقوم قطب مذهبي على أنّ الحياة الدنيا هي الألف والياء، وهي الفصل الوحيد الأوحد. ولم تُفد تحقيقاتي وتدقيقاتي في حمل كلامي على قد قصدي ومرماي، وبالتالي في فكّ إساره وإعتاق رقبته من ذوي ألسنة السوء، ضعفةِ العقول، محترفي التحريف والرجم بالغيب، أبطال التسطيح المنهجيّ والإبطال الهمجيّ.

ولقد تظاهر في الشوارع شباب من لابسي المرقعات ومربّي اللحي والشعور، مردِّدين شعارات تمجّد الحياة المثلى، حاملين

لافتات بألوان الفصول الأربعة، مكتوب عليها مثلاً:

«الحياة حبّ وعدل وإلاّ فلا»؛

«تحابوا واهجروا الحرب»؛

«لم يبق في جدول الأعمال إلاّ تكريم الإنسان أو الاستشهاد في سبيله».

ولما لم تنفع حججي في إثبات جهلي بأولئك الشباب نُسبوا كلّهم إليّ تلامذةً وأتباعًا.

أما بوليسنا، بأمر قانونيّ مكتوب، فقد أرهقوا بيتي تقليبًا وتفتيشًا، حتى عثروا على كناشات كثيرة، نكرتُ معظمها، واعترفت بنسبة واحدين إليّ، وبما ورد فيهما من خواطر لم أر في تسطيرها خطرًا على أحد، ولا على الدولة حتى، ومنها:

«في هذا العهد العاتيِّ العصيب، لمن الجاهُ والغلبة؟

قل كما قلتُ ولا تخشَ العاقبة:

العنفُ في عهدنا فوقَ الظنّ والنهاية.

أما الإنسانُ ـ الغاية فآيةٌ عاطلةٌ وخرافة.

والويلُ، كلُّ الويلِ، لمن يخور ولا يستبين إلى سدة الحكم طريقه...»

ومن تلك الخواطر أيضًا:

«تركتُ صاحبي لا تغنيه الجرادتان! لأنِّي تركته يسهر الليالي الطوال في مراودة كتابة السيرة الذاتية لشعب من الآدميِّين لم يعودوا يقوون على حمل رؤوسهم».

ومن تلك الخواطر أيضًا:

«ألفيت صاحبي الآخر يراكم في النهار الوقائع والقرائن الشاهدة على بؤس السياسة في حياة بلاده. وبالليل ـ حكى لي ـ صار ينظم الكلمات تلو الكلمات في مدح الثبوت والثبات... وفي الفجر، وقتَ السحر، رأيته يهبّ للوقوف موقف السعي مع رجالٍ ونساء من الطينة الأولى، لم يخطروا ببال الحيسوبيين المتنبّئين، رجالٍ ونساء أشداء على أعداء العدلِ والنضارةِ والبهاء، أعداءِ الحياة!»

لم أنكر صحة انتساب تلك التقييدات إليّ. ونبّهتُ فقط قاضيَ التحقيق إلى أن ورودها عليّ كان غداة يومٍ قيّد فيه رجال الأمن أمي بسريرها، وراحوا أمام عينيها يشبعونني ضربًا ورفسًا وتجريحًا. وحين لاحظتُ أنّ القاضي يستدرجني إلى الاعتراف بأنِّي بأقوالي وأفعالي إنّما أبغي دفع الناس إلى الحياة القصوى، واستعداءَ المحكومين على الحكام والرعية على الراعي، انتفضتُ وقلت إنّ الإستنتاج الأول جائز بينما الزعم الثاني ظنيٌّ ومن

اجتهاد القاضي، فغضب هذا الأخير لكلامي، وهاج وماج، ولعلع في وجهي قبل أن يأمر الحارس بإخراجي من ديوانه:

«تكفي التهمة الأولى وحدها لكي نلقي بك في غياهب السجن، بل يكفي فقط كونكَ لا تمارس حرفة معيّنة لنفترض محقّين أنّك تزاول شتى أنواع المهن المشبوهة، من جاسوسية وقرصنة جوية أو بحرية ومتاجرة بالمخدرات والسلاح».

تكفي التهمة الأولى... فليكن.

من قبل، يا إخوتي في الأسر، كنت أشكو فأقول:

إلى متى، يا سكّان عمارات الدنيا، وأنا في حومة الانتساب والنسبة، أجرجر الأيام وتجرجرني، أتكوّر مع الزمان كغيري من المتكوّرين وأزدحم، لا حصةَ لي من بياض البدء، ولا كوة تجذب إليّ ولو خيطًا من المطلق أو ذرة؟

ومهما أنس فلن أنس متسوّلةً في مقتبل العمر تشبّثت ذات يوم بذيل جبّتي، وطفقت تستعطفني وتدعو لي بحماس منقطع النظير؛ هذه المتسوّلة ذكرتني بحالي وأنا أتوسّل إلى ربّي أن يجعلَ لي آية، أو يبديَ لي علامة، حتى إذا ما قويتُ بها كسرتُ شوكةَ الطغي، وأعدتُ إلى المستضعف حرارته وعافيته.

وكنتُ في الشكوى ألجّ فأردف قائلاً:

الناس في بلادي، يا ربّي، كأنّي بهم مخدّرون دائخون؛ في رمال الغفلة والسهو، حتى الأذقان، غائصون. تراهم في أمور شتّى يهيمون على وجوههم في سطوح الفتات والقشور. أيامهم يركبونها عوجًا، ولا يرومون من تدافعها إلاّ الجواز والعبور. وأنا بينهم مدلجٌ، غامضُ الإحساس والرؤية، حتى إنّ البقر تشابه عليَّ وأحلامي بخلاصهم تموت في المهد أو تهوى قبل الينوع... فاشهد اللهمَّ أنِّي صابرٌ صامتٌ بين مطرقة الوقت الجارف وسندان الأحوال الشقية.

واليوم أُواسي النفس وأقول: دوام الحال من المحال، ورُبَّ نقمة في طيّها نعمة! وأضيف قولاً ما فهتُ من قبل بأقوى منه ولا أبلغ، قولاً عساه ينفذ إلى آذان المحكمة فيريحني من وكيلي ذي القوام الفاسد والكلام المهزوز: ....


قصية جميل الليث

هو أنا جميل الليث:

ويلقبني أهل المجون والظرفاء: كازانوفا.

أبي هو الفقيه أبو عياد الليث. هوايتي التي باتت عندي كمهنة: الهجرة. متى ضقت ذرعًا بالناس أو بأهل الدولة هاجرت، ومتى ضاقت نفسي أو ضاقت بي السبل هاجرت. ولما أن عيب عليّ أنّي حوّلت الهجرة إلى اختصاص يخفي كوني عاطلاً، ذكّرت من تنفع فيه الذكرى أنّنا معشر المسلمين إنما نؤرّخ في ملتنا بالهجري، وأن نبينا عليه أزكى السلام هو سليل دوحة المهاجرين وسيّدهم.

أما ما حفل به ملفي وانتفخ، فحول فكرتي التي كنت أسرّ بها وأجهر، إذ صرت أهيب بالبلديات إلى إعادة النظر في بناء المدن وتخطيطها، آخذةً بعين الاعتبار ضرورة فسح المجالات لنموّ الحياة ورعاية الحقّ في اللقيا والمؤانسة، والحقّ في العيش العاطفي وحب الغير. ورغم ما كنت أضفيه من لطافة وحذق على

أحاديثي، اعتبرني رهط من الفقهاء غيرَ ذي غيرة على الأخلاق العامة، ولا على سمعة وطننا الطيّبة جداً في الداخل والخارج؛ ورأوا أنِّي من روّاد أو دعاة «الثورة الجنسية»، الوثيقة الصلة عندهم بالثورة السياسية، وأفتوا ضدّ تلك الثورة الإفرنجية النشأة والتكوين، وضدّ خلفياتها وعواقبها الفلسفية... وتقرّر أنِّي أدعو إلى الحبّ وأيِّ حبّ! وأنَّي شديد الإرتباط بالمتمرّدين السياسيِّين، ومجتهدٌ في التنسيق بين أعمالهم وأعمالي.

الحجّة المادية الوحيدة في ملفي شريط صوتي سجّلته عمداً بأقوالي لما علمت باندساس لواقط صوتية بين جدران بيتي... ماذا جهرت به يا إخوتي في الأسر؟

«سؤالكم يا أحبتي، قلت، يدمع عيني. ودمعتي آية حسرتي على ما نفتقده، وحجة على طقسنا الوجدانيّ، الفاتر الخاسئ...

«العين تدمع حين أدرك بالبصر والبصيرة كم من أجساد تقض مضاجعَها أطباقُ الوحدة وأنياب الغربة، فيحلّ محل امتدادها الطبيعيّ المتفتّح عيشٌ عنكبوتيٌّ قانط...

«أعرف أنّ في أوقات تلك المحن، يُزَفّ الجسم إلى الغبار الخشن، ويكتوي باطنه بشارات التصدّع المرير والانشطار. وكم من ضحايا تحمل تلك الشارات ما زالت سقطاتها تُرعش ذاكرتي وتهزّ كياني!

«وبناءً على ما تقدّم، سجّلوا لحسابي هذا القول المشرق المتألّق؛ سجلوه بالقلم الدقيق والحبر الرائق: ....

حلقاتُ صحيحِ كلامي الذي لا أنكر نسبته إليّ هي ما ذكرت، أما المزيد والمنقوص في شريطه المسجّل فلا ناقةَ لي فيه ولا جمل.

ومهما أنسَ فلن أنسَ ما حييت شابًا ادّعى أهل السلطة أنَّه من تلامذتي وأتباعي، ولو أنّي لم أره قط، وإنَّما بلغتني قصته عن حكواتي في ساحة «كان ثم كان» الشهيرة، قال:

سمعت أنّ شابًا وسيمًا، أنيق الملبس والمظهر، عاد طبيبة نفسانية بعد أن ضربت له موعداً. فلما اختلى بها رفض الاستلقاء على الأريكة، وغلّق الباب فضمّها ضمًا شديداً إليه، ثم شهر في وجهها مسدسًا، هامسًا في أذنها بصوت متضرّع شجيّ: أتوسّل إليك بآلهة العشق كلهم، عالجيني من انجذابي الجنونيّ إلى نون النسوة، وإلاّ أعدمت نونك ونفسي معك، فأريحنَّ منّي وأستريح منهنّ...

وحين طلب المتحلّقون من الراوي أن يطلعهم على خاتمة الحكاية، وعدهم بها لأجل سمّاه، إلاّ أنَّه لم يف ولم يظهر له من

أثر، وقيل مات على حين غرة، فذهبوا في تخيّل الخاتمة مذاهب شتّى متضاربة: فمن قائل إنّ الطبيبة ضغطت على زرٍّ تحت رجلها فهبّت لنجدتها مساعداتُها، ففلقن للمريض رأسه؛ ومن قائل إنّها ولولت في وجهه ولولةً ضاجة منكرة أفقدته وعيه؛ ومن قائل إنّه أطلق سراحها ثم أعدم نفسه. وعلى لسان ممثّلها الناطق باسمها، الملقّب عند العارفين «عين العشق»، ذهب قوم إلى أنّ الطبيبة وقعت في حبّ مهدّدها زمنًا، ثم غيّرت مهنتها لتتزوّجه على سنة اللّه ورسوله.

وكذلك مهما أنسَ فلن أنسَ ما حييت قصة شاب آخر يُلقَّبُ ذو النونين، ادّعى أهل السلطة أنّه هو أيضًا من أبرز تلامذتي وأتباعي. وهذا الشاب وضعوه مرارًا في الجبّ، لعلّه ينقطع عن الكتابة، فلم يرعوِ، ثم نزعوا منه الورق والقلم، فلم يستوِ. عندئذ اجتهد المكلّفون به في تحويل كلّ ما قاله وكتبه إلى لغطٍ ولغو. ولكن، بالرغم من ذلك كلّه، لم يدروا كيف تسرّبت أبياته وحتى آخر أبياته إلى أوساط الناس، وصارت تسري على ألسنتهم في السرّ والعلن.

ويوم مثول الشاب أمام المحكمة، تقدّم صاحب الشرطة بتقرير أدبيّ أعدّته مصالحه المختصّة حول شعر المتّهم، متصديةً لمضامينه ومضمراته بالتمحيص والنقد. ويقول الفصل الأول من التقرير إنّ للشاعر وقفات عدة في باب الزورق، من أخطرها هذه

الوقفة القائلة ما معناه: «الزورقُ الأزرقُ السابحُ في الموجِ ونورِ اليقين، أَعْظِمْ بالعشاق فيه والثائرين!». وادّعت تلكمُ المصالح أنّ مدلول الزورق إنّما يرمز إلى «غرانما»، المركب الذي سخَّره ثائر ملتحٍ وصحبُه لغزو جزيرة بعيدة.

أما الباب الثاني من التقرير فيتطرّق إلى نقد أبيات شاعرنا التي وإن كانت لا تتغنّى إلاّ بامرأة واحدة، فقد صُنّفت في غرض الغزل الحضريّ الصريح الفاضح، وتُليت كلمات منتزعة منها انتزاعًا مع التذكير أنَّها أقل من غيرها حدة وفحشًا، وهي:

«وأقربُ ما فيكِ إلى الحكمةِ نهداك، وأبعد ما فيك عن..............................

«أركب ظهر الدنيا وأهب وجهي للهيجان المحفوف بالبحر وعطايا النساء.

«أركب ....

«الحصان! لولا الحصان لما أتتني الأنثى من حقلكمُ الحجريّ، لما ....»

وعلق صاحب الشرطة أنّ هناك في التقرير حواشيَ وتعاليقَ شتّى حول مفهوم النهد عند الشاعر، ومفهوم عطايا النساء، ومفهوم الحصان؛ ونزّه المحكمة الموقّرة عن الإنصات إليها، ثم ختم

شهادته بالإقرار أنّ إلقاء القبض على المتّهم تم بعد أن عثرت عليه شرطة الشواطئ بين صخرتين قدام البحر المتوسط، وهيئتُه أنَّه في حالة تلبّس مريبة مع امرأة خليعة، يلامسها ويقرأ لها أشعاراً تثير الأعصاب، حسب زعم المقرّر، وينّدى لها الجبين.

رويت من قصة ذي النونين ما رويت، لا لأنَّه عُدَّ من أتباعي، مع أنِّي لم أره حيًا يرزق، بل لأنّ خبر انتحاره حدا بي إلى تقصّي أخبار حياته في حدود الإمكان والاستطاعة، فعلمت ما رويت، وعلمت أنّ المرأة المشار إليها في آخر التقرير ذاك كانت خطيبته، وأنّ بقاءها مطوّلاً رهن التحريات والاستنطاق أفقده صوابه واتّزانه، حتى إذا بُثت الشائعات عن مخالطتها لأعرابي نفطويّ من قبيلة أنف الناقة، أقدم على وضع حدّ لحياته، غفر اللّه له وشمله بواسع رحمته.

وأيضًا، مهما أنسَ فلن أنسَ قصة مريد آخر نسبوه إلى مذهبي، وهو شيخ طاعن، يسمّى عبد الجبار اللاهث. التقيت به مرة واحدة في سوق الورد، فتحادثنا في أشياء لا أذكر منها إلا جوابه عن فضولي في التعرّف على حرفته وسنه، إذ قال: «لي سبع صنايع والرزق غير ضايع: بستاني وترجمان وبائع ورد وقارئ على القبور وضارب على القانون ومحارب وشاعر. أما عن عمري، ولو أنِّي سلخت معظمه، فلديّ شعور حادّ بكوني أتربّعُ

على عرش الشباب، وأفيضُ حياةً وفتوة، وأتطلّع إلى المستقبل بالتخطيط والإقبال» .

وأما التهمة التي أُبلغتُ أنَّه توبع من أجلها، ولم يفتأ يصدع ببراءته منها، فهي أنّ مربّين وبعض ممثّلي نقابة الرجال المتزوّجين أدانوه بارتياد سطوح المدينة ونظم قصائد في التغزّل بالألبسة والسراويل النسائية المنشورة في الشمس والريح. وقيل إنّ مصلحة الشرطة الأدبية لما بحثت في الموضوع تكشّف لها أنّ من تلك القصائد ما يفوق المائة بيت، وأنّ آلاف الشباب حفظوها عن ظهر قلب، وردّدوها في مجالسهم ونزههم، وطاردوا بواسطتها فتياتِ أوساطِ الأبهة والبذخ...

هل أعود بكم إليّ؟

ولأقول ماذا وأزيد ماذا يا إخوة الأسر؟

الأحسن والأولى لي ولكم أن تخلّصوا آذانكم من لساني. فإنّي، ممتطيًا صهوة الصمت الصافي، ذاهب إلى ملاقاة عمقي، رأسًا لرأس، حيث سأدعو الله أن أكون من الذين قال عنهم الرسول عليه السلام قولاً لا أرق منه ولا أحلى، قولاً أهديه إلى محاميتي الطموحة باقةَ نورٍ لا تذبل ولا تبلى:

«أول زمرة تلجُ الجنة صُورهم على صورة القمرِ ليلةَ البدر، لا يبصقون فيها ولا يتمخّطون ولا يبولون ولا يتغوّطون. آنيتُهم وأمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرهم من الأُلوَّة، ورشحهم من المسك. ولكلّ منهم زوجتان يُرى مخُّ ساقهما من وراء اللحم من الحُسن. ولا اختلاف بينهم ولا تباغض. قلوبهم قلبٌ واحدٌ، يسبّحون اللّه بكرةً وعشيًا».


قصة سعدون المجنون

هو أنا سعدون المجنون:

أُدخلت في عداد الحمقى، المدّعين أنَّهم يبعثون لنظام السادة والساسة آيات إفلاسه وصورَه القياسية المريرة. وكم كنتُ أُعجب بهذا الانتماء وأعتزّ!

وأضيف: كثيراً ما زعمتُ أنِّي أشعر شعوراً حاداً عنيداً بانشطاري إلى شقين، الفاصل بينهما حزام ريحٍ وريحان. كما زعمت أنِّي لا أتنفّس في غالب الأحيان إلا بالنية والإرادة والعزم، وأرى السماء وأحسبها دالية عاقراً دكناء. ورغم كون النفسانيِّين صاحوا في وجهي: شكيزوفرينيا.. فصام.. داء الفصام! إلاّ أنّ حضرة المدّعي العام، في إحدى جلسات مقاضاتي، حضّ المحكمة الموقّرة على اعتباري لا كأحمق عاديّ لا حرج عليه، بل كرجل خطير، يفتعل الحمق ويستعمله أداةً عجيبة مثيرة لبلوغ مرامي وغاياتِ إحدى التنظيمات السرية المتكاثرة، حسب ظنّه، في هذا العهد.

وحين دعاني القاضي إلى الإقرار بذنبي أو نفيه، أجبته أنّ في الأمر أخذًا وردًّا، ودعوته إلى تصوّر أنّي أيام اشتغالي حارسًا ليليًا، كان النوم أحيانًا يقهرني، فأتكوّم لحظاتٍ أمام سور قصر الباشا، فتأخذني أحلامي الزائغة المنفلتة إلى غرفة خادمة الباشا، وكلي رغبة وأمل في مراودتها عن نفسها بالحسنى؛ وسألت القاضيَ جادًا: إلى أي طرف توجّه حضرتك التهمة: إلى الحارس الليليّ أم إلى أحلامه؟ غير أنّه صرخ آمرًا إيّاي بالكفّ عن اللغو وبالإفصاح.

أفصحت فقلت: إن كانت المحكمة تلاحق الإنسان حتى في أقصى حالات ضيقه، فلها أن تعتبر شعوري بالانشطار ذنبًا وتنفّسي بإرادةٍ خطيئة. لكنّني أنبّهها اليوم إلى أنّه، إدراكًا منّي لخطورة حالتي، بعثتُ مرارًا وتكرارًا رسائل مضمونة إلى مجلس الوزراء، أهيب به فيها إلى جعل حالتي تلك على رأس جدول القضايا التي يتباحثها؛ وبطبيعة الحال لم أفلح في طلبي ذاك، وبقيتُ مدةً محروسًا إلى أن أرسلوني، ضدًا على رأي الدفاع، إلى سجنكم هذا في انتظار حكم قد يأتي أو لا يأتي...

إنّي، بدوري، مهما أنسَ فلن أنسَ ما إن لو حكيته لكم لأنساكم قصة حياتي الرتيبة العادية. حكايتان عجيبتان خبرتهما عن قرب بالاحتكاك والتجربة.

الأولى لفتًى اشتعل رأسه شيبًا، وخربت أسنانه وهو في ربيع العمر. فتًى حفظت عنه ما كان يقوله ويكرّره على الأسماع من شطحات عن تصوّره للدار الأخرى، وتوهمه لقسمته من الجنة. وفي الإنصات إليه، كم تعذّبت لرؤية روحه تتمزّق إربًا إربًا في مارستان من مارستانات هذه الدنيا!

كان يقول: «*عن الحسن البصريّ قال إنّ اللّه تعالى يقول لعباده يوم القيامة: ادخلوا يا عبادي الجنة برحمتي واقتسموها بأعمالكم*». *انتهى كلام البصري*.

«والأعمال، كما نعلم، يضيف الفتى، إنّما هي بالنيات، فما الحكم في حقّ الذين يأتون الأعمال القبيحة بالنيات الحسنة؟ وهذا هو حالي.

«حسب توقّعاتِ عرافٍ عصريٍّ حصلها من حساب الاحتمالات وأحدث الآلات الحيسوبية: لن أدخل النار، كما أنّي لن أدخل الجنة بما فيها من متعٍ ومسراتٍ عظمى لا تحصى... لذا فسيملّكني ربي ضيعة صغيرة من مائة أمتارٍ مربّعة بإحدى ضواحي الجنة. ولا يهمّ إن سمعت فيها لغواً أو تأثيماً؛ ذلك لأنّي سأكون مشغولاً بما سأطلبُ التكلّف به: أن أرعى عينةً من الحشرات الصالحة، متجهّزًا بالعبادة والصوم إلى الفوز بدرجة أرقى، كأنْ أسهر على راحة بعض الدواجن الطاهرة الأليفة.

«إنِّي، كما ترون، لا أطمع في ناقة اللَّه، ولا أن تمطرني السماء ذهبًا أو فضة. وإنّما ينتهي طموحي إلى أن يسعدني ربّي ويكرمني بأن يرقِّيَ متاعي فيقلّدني مهمة رعايةِ قطيعٍ من الغنمِ المُحبَّبِ أكلُه عند الأولياءِ والصالحين وأولي الفهم.

«أمّا لرعاية معزي وخرفاني الطائعة المرضية، فلن أحتاج إلى عصا، بل إلى مزمار أنفخ فيه، وأستعمله كذلك لتبديد ما قد يعتريني بين الفينة والأخرى من حزنٍ ومخاوفَ أو شعورٍ بالغربة.

«إنِّي لا أطمع يا ربُّ إلاّ في أن ترفع عنِّي كلّ كربة في دارِ المأوى القرار. وأنت تعلم أنِّي في دارك السفلى كنت ولا أزال مغناطيسَ حديدِ البلايا والأحزان، وأنِّي بدأت فيها غريبًا وسأنتهي منها غريبًا، وعزائي كلّه في تشبيهك للحياة الدنيا بالماء أنزلتَه من السماء ﴿*فاختلطَ به نباتُ الأرضِ فأصبحَ هشيمًا تذورُه الرياح*﴾.

«فطوبى لي إن جعلتني في ضيعتي الأخروية إلى سرّ السرورِ أتوق...

«وطوبى لي إن وهبتَ لي من حينٍ لآخر دنًّا من الخمر، ولو كان غير معتّقٍ وغير ذي شأن، كالذي أتجرّعه في هذه الدنيا الدنية.

«وطوبى لي فطوبى إن أسكنتَ بجواري جاريةً من جواري الجنة، ليس من الضروري أن تكون جميلةً أو مجنّحة، وإنّما أبتغيها كما هي لأراودها عن نفسها بالحسنى، حتى إذا شاءت أشهدتُ على نكاحها أبا هريرة، كيما يصير بعضنا لبعض قرة عينٍ ولباسًا، كيما يوضح الفتى لا أنا: ....

....»

أما القصة الأخرى وهي ليست أقلّ عجبًا في ظنّي وعرفي، فبطلها رجل قيل في محيطه إنَّه أصيب بالخرس واللقوة، لطول ما عانى من قهر الزمان وبطش السلطان، فصار يقضي النهار كلّه والليلَ بعضَه في محاكاة عواء الذئب تارة، وصهيل الحصان طوراً. فشغل الأطفال والفتيان، واشتكى منه زوّار الحي والسكّان...

وبطبيعة الحال وُضع الرجل في مارستان مدة عشر سنين، تحسّنت خلالها حالته وأضحت آيته ألا يكلّم الناس البتة. وبعد ذاك أُطلق سراحُه وأُعيدَ إلى الحياة العامرة الحرة، حاملاً شارات التكيّف والهدوء، وحتى أوسمةَ التسليم والانضباط. لكن، من حيث لا يدري أحدٌ ومن دونِ سابقِ إنذار، سرعان ما عاد الرجل إلى غرابته، فدخل مجدّدًا في ذاته، ثم خرج طالعًا على الناس

بكتابٍ كلّ كلماته وجمله منقولةٌ نقلاً من كتب فلسفية عتيقة. وبطبيعة الحال، بادرتِ الدوائر المختصّة إلى إتلاف نسخ الكتاب كلّها، فأخذ صاحبه يرتاد ساحات المدينة جميعها، متنكّرًا في زيٍّ الدراويش، يروي فيها فصولاً من مؤلّفه، ثم يرمي بأوراق كل فصل في نار يطوف حولها راقصًا على طريقة الهنود الحمر. وظلّ على هذه الحالة إلى أن سقط يومًا ميتًا في ناره، وكان يوم عاشوراء، فتناثرت بقايا مؤلّفه قطعًا مفحمة ورمادًا، إلاّ من ورقة يتيمة فلتت بأعجوبة، فتناقلتها الأيدي والألسنة. وعلى نسخة منها، اشتريتُها سراً من كتبيٍّ شاطر، واحتفظتُ بها في صرتي، وردتْ شذرات تؤرِّق الألباب وتقطّع الأكباد.

ومنها: «أوجب الواجبات عندي، حفظًا لماءِ الوجه: أن أكبح جموحي الوجدانيّ، وأن أتعقّلَ وأتّزنَ وأتخندقَ في البعد والابتعاد، تكيُّفًا وتماشيًا مع سيادةِ الأدمغةِ الفاترة، والحججِ الباردة، والعلاقاتِ المحسوبةِ أو الخربة.

«أما إن عاودني جموحي وحماسي من باب الانتفاضِ أو من دون سابقِ إنذار، فعليّ أن أنهر نفسي وآمرها بالرجوعِ إلى جعبتها، والتوغلِ في الجوى المكتوم والصمتِ المكنون، قائلاً لها: انكمشي وتكيّفي حتى لا تدخلي في عداد أرواحٍ كثيرةٍ، أزهقها طغي التصحّر، وانتشارُ الأقفالِ والأختامِ والعيونِ الزجاجية المنطفئة».

ومنهـا: «أبحث عن نقطِ تماسٍ مع فلك الفـراغ، حـيث يمكن حطّ الرحـال والتخلّص من كلّ الأعباء، ما ظهر منها وما بطن، فلكٍ فيـه يجـوز التطهّـر الأقـصى بماء البـدءِ والولادةِ والضيـاء... وفي بحثي كنتُ أغمض عينيّ بشدّة كيمـا أعلوَ وأتجوهرَ في سُرتي وأذوب. لكن ـ واعجباه! ـ لم تكن تتجلّى لي عبر تدافعِ الذبذبات والتموُّجات إلاّ حشراتي بغمزاتها وتحرُّشاتها الوقحة النكراء، حشراتي الباطنية اللاسعة الحقودة.

«تعلّمت بعد ذاك أن لا فراغ ينفعُ ويشفي إلا الذي أجده وألقاه في الحملقة إلى الزحمة الآدمية، وأمواج الوجوه الغريبة النكرة».

رحم اللّه واضع هذه الأقـوال الممـتـعـةِ المؤنسـة، والحِكمِ الجريحـةِ البليغة، سواءً كان قائلُها ذلك الرجل أم أحدَ الحكماء الصالحين من قبله.

وهل أعود بكم إليّ؟

ولأقـول مـاذا واليـقين عندي أنّ كـلامي، ككلامكم، لن يخلّصني من هلاكي المرتقب... جنوني، حتى جنوني، لم يعد ظرفًا مخفّفًا أو درقة واقية. إنّ بين أولي الأمر وبيننا جميعًا، يا إخوة الأسر، شروخًا شتى لا تنطمس ولا تهون، وعقداً صلبة لا تنحلّ. لذا وجب عليّ المثابرة والصبر. لا محيد لي عن رفض

حيـاة الغـثـاء واللغـو، حـيـاة الأيام المتـدافـعـة بين البطلان والسُّخف... سأظلّ، كـمـا كنت، زاهداً في دوائر الحـاكـمين بأمرهم، آخذاً كتاب الحياة المثلى بقوة التأمّل والجد، قارئاً صحف الأسلاف الثقات كما لو أنَّها عليَّ أُنزلت، لا أُلزم سوايَ بسيرتي وما ارتضيت، ولا أفتّش في بواطن الغير وعوراتهم... سأظلّ، ما حييت، أروي عن أولياء الإلهام والفهم أحاديثَ شائقةَ المتن جليلةَ القدر، سواءٌ قالوها فعلاً أم شافهوني بها في أحلام مناماتي ويقظاتي. وحتى لو أُطلق سراحي فسأجتهد أكثر في نسخ ما يتوارد عليَّ من أفكار عميقة في انتظار أن يوحى إليّ بما هو أعمق منها وأبقى. فلا أخفيكم أنّي، يا إخوة الأسر، ما زلت أراود المحجوب والعصيَّ على الفكر، وأربط الاتصال مع هاتف الغيب، لأبثّ إليه لواعجي وخطراتي، رغم ما يصيب خطّ الوصل من تشويش وقطع.........................

قصة حيّان المهندس

هو أنا حيان المهندس:

ابن العلامة ياقوت المنجم. مهنتي عراف ولي ما تيسّر من علم الفراسة والهندسة. أما عن وضعيتي المدنية والجندية، فأنا عجوز، كما ترون يا إخوة الأسر، وأنا أعزب ومحارب قديم.

إنّي لا أدّعي وما ادعيتُ يومًا القدرة على التكهّن بالمستقبل، ولا تطاولتُ أبدًا على غيوب علمُها عند اللّه وحده. لا، بل كل ما أقول به في ميدان الحياة البشرية، إنّما أدّعيه لأنّ له وجوهَ شبهٍ منهاجية بما يسمّى فنّ التوقُّعات في علوم تجريبية أو قياسية، كالطبيعيات والطب والكليات والطقسيات، وغيرها.

التهم الملصقة بي: الماورائية والغلو وتعميق التناقضات. ولقد كان إقراري بكلّ تهمة على حدة وبتفاصيلها وليد صدمات كهربائية، كان المستنطقون يُخضعون لها المناطق الحساسة في

جسدي . . . التعذيب المنهجيّ، يا إخوتي في الهمّ، هو عندنا من الضخامة والهول، بحيث يستطيع أن يقهر قوة هِرَقل، بل قد يدفع قيساً إلى نسيان ليلاه!

اتهمني المدّعي العام في إحدى مرافعاته أنّي أطعن في شرف المحقّقين وأشكّك في نزاهتهم. والواقع أنّي لا أطعن إلاّ في محضر الشرطة الذي يخصّني، إذ كلّ ما حفل به وأضيف إليه إمّا مزوّر، وإمّا منتزع منّي بالعسف والعفس. وما زالت تطنّ في أذني كلمات ذلك المدّعي، إذ صاح بصوته الرسميّ العنهجيّ اللعلاع :

« سيدي القاضي : الحقيقية قيمة مقدّسة، وإثباتها يستلزم استعمال الوسائل والمناهج المواتية الناجعة. أما أن يأتي هذا العرّاف ويطعن في جدارة طرقنا في البحث عن الحقيقة والكدح إليها، فهذا ذنب، هذا استهتار! ولو أنّه قال الحقيقة في شأنه، وفتح صدره للمحقّقين، لما أُرغم على قولها بالوسائل الزجرية المشروعة . . .

« سيدي القاضي : لنفترض جدلاً أنّ المتهم استطاع أن ينفي عنه بوجه من الوجوه التهم الملصقة به، إلاّ أنّه عاجز عن نكرانها من كلّ الوجوه. مثلاً، هل بمقدوره أن ينكر قصته مع أحد موظّفينا السامين، الذي لا يحقّ لي ذكر اسمه في هذا المقام؟ »

كيف لي أن أنكر قصتي مع الموظف السامي ذاك وقد باتت شائعة مشهورة، يتناقلها الظرفاء والسمار! وكيف أنساه، ذاك السامي، وكلّ ما فيه شفافٌ هو بطنُه المتخوم بعجائن الرشاوى والبراطيل والمال الحرام!

لست وصيًا على الضمائر، ولكن متى تهيأ لي اختبارُ النزاهة والضمير المهنيّ اجتهدتُ واستنفرت. لقد زارني في داري ذلك السامي متستّرًا وصارحني من دون لفٍّ ودوران أنّه مقبل على تحويل قسط من مال الخزينة البلدية لحسابه الشخصيّ. وهذا المال، وهو من حصيلة مساعدات أجنبية وسهرات فنية أحياها شباب المدينة طوال فصل الربيع، كان مخصّصًا لبناء خيرية وحديقة للأطفال. وبعد أن باح لي بسرّه، وكشف لي عن سريرته، طلب منّي أن أقرأ له المستقبل وأُطلعه على مآل فعلته. وحين تأكّدتُ من قوة قراره وصلابة عزمه، بدا لي من الصواب والعدل أن أفعل به ما يفعل العدو بعدوه. زيّنت له صنيعه وطمأنته على حسن العاقبة وصحة المردود، مُشهداً القرانات النجومية السعيدة في برج السماء. ويعلم اللّه أنّي ما تقاضيت مقابل ذلك هبة ولا فلسًا؛ كما يعلم، وهو خير العالمين، أنّني إنّما فعلتُ ما أملاه عليَّ ضميري في وجوب فضح المنكر، الذي هو في هذا المقام دوسُ حقوق الأطفال واختلاسُ مال المتروكين والأيتام.

وسمعت، كم سمعت من كلام القدح والتقريع على لساني المدّعي العام ووكيل الموظف الغائب! ومفاده أنّي من أخطر الكادحين إلى تجذير التناقضات وتصعيدها، وأنّي لست متّهماً بالغلو والماورائية فحسب، وإنّما أيضًا بالنشاط في دوائر التقبّض بالأعيان والأكابر تصيّداً وتشهيراً وقذفًا.

أجل، نصبتُ فخ التغرير والتزيين للموظف السامي المحجوب، وسقط فيه بإرادته واندفاعه، ثم خرج من فعلته ظافراً غانمًا، لا خوف عليه ولا حرج. فلم تستطع كلمتي ضد كلمته شيئًا، وانقلبتِ الأمور عليّ، وصرتُ في حيص بيص من أمري. وكلامه الذي قرأه وكيله نيابة عنه كحجّة مادية ضدي، كيف لي أن أنساه وقد حصلتُ بوسائلي الخاصة على نصّه في ورقة ما زلتُ أخفيها في سروالي. ها هي الورقة، فانصتوا إليها، يا إخوتي في الهمّ، لعلّ أسنانكم تتعرّى وصدوركم تهتزّ ضحكًا عليها.

تقول: «السلام على مقامكم العالي جداً... سيدي القاضي، بناءً على ما ورد في محضر الشرطة بخصوص العرّاف حيان، صاحب المكائد والزلات؛ وبناء على ما أدلى به مشكوراً السيد المدّعي العام من إيضاحات وتفسيرات، تلقي على خطايا المتّهم الأضواء الكاشفات، فقد تبيّن بالحجج الدامغات أنّ سلوك

العرّاف حيان ينطبق عليه ما ينطبق على سلوكات الزائغين وأعمال المشاغبين، التي لم يعد يرضى عنها ضمير المؤمنين ولا عقل الدهريين، في عصر شهد مولد ميثاق حقوق الإنسان، واستقلال الأمم والأوطان، وصعودَ الآدميّ إلى القمر، واختراعَ وسائل إنزال المطر، وتمتّع المرأة بحقوقها كاملة غير منقوصة، فصارت تعمل وتبني مع شريكها وحليفها الرجل جنبًا إلى جنب.

«وبناءً على ما ذُكر وما ظهر، وعلى القوانين والأعراف الجنائية الجاري بها العمل، وجبت معاقبةُ كل مخادع مغامر وكلّ محتال متآمر. وبناءً على المرسوم رقم ٩١١٥ الصادر في فاتح شوال من سنوات خلت، وجب الضرب على يد العرّاف حيان حتى يكون عبرة لغيره، ويرتاح ضمير الإنسان. والسلام على مقامكم العالي جداً».

أما حكمي على تلكم الخطبة فجهرت به في جلسة المحكمة، إذ اعتبرتها لغواً وحشواً دون الحقيقة والواقع. وتصدّى لي وكيل صاحبها، فاستدلّ بحكمي على نزوعي الماورائيّ الذي اعتدت من خلاله، حسب زعمه، أن أحكم على كلّ شيء بأنّه دون الحقيقة والواقع. وطلب من قاضي المحكمة الموقّرة أن يأخذ بعين الجدّ والقياس تقييمي ذاك لخطبة الموظّف السامي...

محاميّتي، أكرمْ بها وأنعم! لن أنساها ما حييت، ولن أنسى قولتها القيمة للقاضي:

«لقد قال موكلي إنّ خطبة المدّعي دون الحقيقة والواقع، وهو في أتمّ القدرة على الإتيان بخطاب فوق الواقع من حيث إنّ الحقيقة الجديرة المعتبرة تتخفّى وراء الواقع وتفوقه قيمةً وشأنًا. ولولا تخفّي الحقيقة واحتجابها لما كان للبحث والتنقيب عنها دلالة ومعنى».

كلام وكيلتي قوبل بالقمع المقنع وبالإحالات والحيثيات المسطرية القاهرة، لكنّه بقي في صدري محفوظًا كاللآلئ المنثورة، يفوح بريعان شبابها وعطر براءتها. ورغم أنَّها الجميلة النجيبة المضيئة، إلاّ أنّ صوتها الناعم الرقيق كان أشبه بزقزقة الطير في غابة الضبح والعواء والزئير.

أكفَّ الضراعة، يا إخوتي، أكفَّ الضراعة ارفعوها وادعوا معي:

اللَّهم يا ربُّ كن في عون وكيلتي واعضدها بمددك وسلطانك.

اللَّهم قوِّ صوتها وقوامها على أولي الأصوات الغليظة والبطون النهمة.

اللَّهم أوقع ولدَ الحلال في عشقها ويسِّر زواجها وحملها.

اللَّهم احفظها ذخراً وملاذاً للمظلومين والمظلومات، وللمعذبين والمعذبات في الأرض.

اللَّهم ....

.... يا حي يا كريم يا مجيب الدعوات».

قصة تأبّط سرّاً

هو أنا تأبّط سِراً:

من الخلف المتأخّر للعدّاء الجاهليّ العظيم تأبّط شرًّا. ويقال، واللَّه أعلم، أنّ حفيده إذ أدركه الإسلام أبى إلاّ أن يقلب الشين في اسمه سينا دفعًا للمكروه وسوء الصيت والطالع، وجلبًا لليسر والفأل الحسن. أما الجدّ الأول فهو الغنيّ عن التعريف، الداخل في رحمة اللَّه وجنانه من باب البراءة الأصلية وسقوط التكليف...

عن وضعيتي الآدمية ماذا عساني أقول؟

أنا لحدّ الساعة أب لأحد عشر طفلاً، ماتت أمهم بالسل والهمّ، وحرفتي العدْو والخوض في حروب كثيرة.

حروبي؟

في جلها كنت أنتصر، وفي بعضها أتعادل مع أعدى العدا ولا أنهزم. والسرّ، يا إخوتي في الأسر، أنّي كنت أخوضها وحيداً وأُجري عليها قوانين التحرّك السريع والكرّ والفرّ.

للعدْو عندي وظيفة حربية، وله عندي أيضًا غاية التطهّر وإنعاش النفس. فمتى ضاقت بيَ الدنيا عدوت. ومتى أصابني حيفٌ أو غبنٌ عدوت. ومتى طاردني أرباب القبض والغصب عدوت. ومتى ضربت ضربتي الثأرية أو الوقائية عدوت.

أعدو في كلّ الأحوال. ولا غرو، فأنا من آل العدائين، سليل دوحتهم ووارثُ سرّهم والساهرُ عليه.

متّهم أنا، كما لا يخفي، بالعدو المفرط وبالتحريض... أما كيف رضيت بتسليم نفسي وأنا العداء الذي لاحقه فرسان القوم ممتطين أسرع الجمال والخيل ولم يظفروا، فليس بسبب أزمة ضمير ادعتْ أقوالُ مغرضة أنّي تعرّضتُ لها. فواللّه لو أُطلق سراحي الآن لسارعت إلى إعادة الكرة، وجددتُ ماضي حياتي بطريقة أكثر دقةً وفنًّا. فهل أكون بعد هذا القسم الغليظ بحاجة إلى دليل على صفاء ضميري وعلو همّتي وكعبي؟

سلمتُ نفسي إذن بعد مقاومة مضنية يائسة ضدّ حبال المساومة الماكرة، وسلاسل الغدر في أقصى صوره القاسية المرعبة؛ سلمت نفسي لما أن أخذ جلادو القوم أطفالي رهائن، بعد أن عثروا على المخبأ الذي كنت أودعتهم فيه، فراحوا يساومونني في إطلاق سراحهم مقابل تسليم نفسي. وكان هذا ما فعلته حتى لا يظل أطفالي، فلذات كبدي، معتقلين وأنا في حالة تملّص وفرار،

وحتى أخلِّفهم بعدي وارثين سري، حاملين مشعل العدْو أعلى وأعلى منّي.

في حصة تعذيب كابوسية مضنية، ما زالت أذكر من كلام بيني وبين جلادي المستنطق هذه النتفة:

سألني: أخوف ما تخافه، ما هو؟

أجبت: أن تغور طاقتي الحرارية وتبلى، فلا تجدَ لها مرتعًا أو مصبًّا.

كسروا ساقيَّ. صرت لا أقوى على السير إلاّ بالعكازين. عندئذ، متكوّمًا أو منطرحًا على المصاطب العمومية، بتُّ أستصرخ ضمائر المارة وأناوشهم بالأسئلة المؤرّقة الملتهبة. تنكّرتُ في لباس كلّه رموز وطلاسم وألوان محرّضة، فدعوتُ إلى تغيير الأسماء والمعاني صعوداً إلى مقامات التألّق والنهوض، ودعوت إلى أخذ كتاب الحياة بقوة، على ضوء أبجدية العدلِ والنضارة والبهاء.

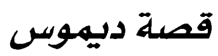
دعوتي هذه ودعوتي تلك وأشياء أخرى كنت أبثّها بثًّا، كلّها كانت ما تبقّى في جعبتي لأجدّد بيعتي لسلطان حريتي. ولو أنَّهم فصلوا ساقيّ عن الريح فصلاً مطلقًا، فوالذي بيده الملك لن ينال أحد من أنفي، ولا من انجذابي العنيد نحو تحقيق الارتباط الوثيق بين رئتيَّ والهواء. توتّري باطنيٌّ ملحاحٌ حادّ، لا

تنقع في إخمادِ نيرانه طقوسُ التبريد، ولا البخورُ والأعشابُ المخدّرة، ولا حتى...............................

وُضعت في حبس ضيّق تحت الحراسة البدنية، ووفاءً لرسالتي وأيضًا تزجيةً للوقت، شرعتُ خلال ساعتين في وضح النهار أخطبُ من خلف شباك نافذتي الحديديّ، فأهجو العموم، وألعن الجبن والجبناء، وأقدح في القيّمين على أركان التمزّق والشقاء... ولما رُفعتْ شكاوى ضدي، أعلنت قاضيةٌ شابة لبيبة عدم الاختصاص في الحكم على رجل معتصمٍ في بيته، لا يُحدث صخبًا ليليًّا، ولا يمارس القذف والتشهير عينيًّا، ولا يوقف حركة السير، ولا يضرب الناس أو الدولة بالحجر.

وقبل نقلي إلى مجمعكم، يا إخوتي في الأسر، مرت عليّ ليالٍ طوال وأنا أفكّر في حكمة واحدة أكتبها بمداد نورانيٍّ ممزوجٍ بدم الشهادة.

الحكمة لم ينكشف بعد ريحانها، ولم يستقم ريحها ونسغها، لكنّ بعض ألفاظها ولطائفها تلمع في ناظريَّ، كطيور وضّاءة في ليل بهيم، حتى إنّي صرت منذ الآن أطمع في أن تُكتب لها الحياة على ألسنة الرواةِ الثقات، رواةِ الحلم الأبهى بما هو حلم ممكن البزوغ والوجود.


قصة ديموس

هو أنا ديموس:

الطاعن في السنّ، كما ترون، بجبتي الفضفاضة، وعصاي التي أتوكّأُ عليها ولي فيها مآرب أخرى. أنا محمد ديموس، حفيد يانيس ديموس اليوناني، طبيب الأسنان، الغنيّ عن التعريف. ومعنى نسبيّ منقولاً إلى لسان العرب: الشعب. أما أمي فعربية الحسب والأصل... ولدتُ منذ ثمانين حولاً خلت، ولي كثير من البنين والأتباع. وضعيتي الجندية: ضابط مطرود من جيش السلطان، جدّ الأمير الطفل خاتم السلطنة المنتهية. لقبني الشعب بالعادل وأطلق عليّ أهل الدولة لقب المشاغب. وإنِّي باللقب الأول معتزّ؛ وللثاني غير رافض، إذا كان فحواه حثّ الناس على الصراع من أجل حياة أعدل وأجمل.

وُجهتْ إليّ تهم كثيرة، لعل أوعرها صِيغ ضدّي عام الطاعون، وهي تحريض جموع المصابين على تنظيم مسيرات ومظاهرات، والزحف على منازل الأغنياء وضيعاتهم في

الضواحي والأرياف، حيث اعتصموا بعد أن تفشّى الوباء في المدن وعمّ... تهمة لا أنكرها من حيث الجوهر، لأنّي من دعاة المساواة في السراء والضراء والمنادين بها... كان لا بدّ، وقد ضرب الطاعون الفقراء، من أن ينال الأغنياء قسطهم منه، وأن يعرفوا معناه وشيئًا من تفاصيل حلوله في الجسم والنفس.

كما أنّي لا أنفي اجتهادي في تسخير الأثر الحاض على المساواة في السراء والضرّاء. فتسخير الكلمات والأحاديث، كتسخير الموارد والخيرات، سُنة تاريخية أكيدة. إنّما التسخير ضربان: تسخير خاصيٌّ حكريّ، وتسخير شعبيٌّ مشاع. فأنا إذن لا أنكر أنّي تلوت على مسامع الفقراء المصابين ما علق بذاكرتي من ذاك الأثر، مبرزاً ضوءه وجدواه في محنتهم الظلماء.

اتهمتُ إذن بأنّي أرى الطبقية وألحظها في كلّ شيء. ولا مانع عندي أن تعتور ملفي الثقيل الوزن، الخطير الشأن، هذه التهمة الجارية على ألسنة من لا أبعثهم على الارتياح.

إنّما رفعًا للالتباسات الناجمة عن التحريفات والاقحامات المغرضة، أثبتُ نصّ خطبتي كما فهتُ بها في بعض جموع الفقراء، لا كما وردت في ملفي ذاك. قلت:

إِخوتي في الأسرِ والضراء:

إِذا لم يحدثِ التبدلُ الأعظم

سينهشُ أجسامَكُم الطاعون

وأجسامَ كلِّ العراةِ الضعفاء...

❖

الطاعون!

فوقَ الوصفِ وما يُظنُّ ويُفهمُ

تخورُ أمامه آمالنا والكلامُ يهون

وتعجزُ عنه ـ وإِن تفانتْ ـ أقلامنا والصدور...



ليس لكم يا إِخوتي في البوادي مخبأٌ أو سكن

لذا ستدورونَ حول أنفسهم ككلِّ المتروكين والغرباء

ستدورونَ باحثين عن مخارجَ في المدى البرانيّ والخلاء...



هناك البحرُ طبعًا والرحابُ الشامخه... وهناك الهواء...

لكنَّ الأخَ ـ واللّهِ ـ كالمغناطيس

سيجذبكمُ الإِخوانُ إِليهم وإِلى قولهمُ المكنون:

الخلاصُ إمّا جماعيًّا يكون وإمّا لا يكون...

واعلموا أنّ كلَّ منفذٍ فرديٍّ يعيدُ إِلى الطاعون

يولجُ طالبَهُ في الوباء قربانًا للقهرِ والقحوط...

❖

الطاعون.. الشّبحُ المعبّأُ الرابضُ بيننا

جارفًا حقًّا ومتلفًا سيكون

فلا عينَ تحوطُه إلاّ عينٌ كونيةٌ لا تنام...

وصرختنا نحن الأهالي ستنضجُ في أوج المأساةِ والانهزام

فلا تلقى صدًى إلاّ خارجَ عمرانِ هذا الزمان...

❖

الزهراءَ كان اسمُها..

كانت حبِّيَ الأوّلَ وأفْقِيَ الأعلى

كانت غيمتي الخضراء وفتنتي الأحلى...

والآن وقد أقبرها الطاعون.. قائمةً في كياني ظلّت

علامةً فائقةً لشوقيَ المغبون . . .

وسنفقدُ أخريات، فتيات ِالريح ِالطيبه

إِذا لم نحترس ونحرسْهنَّ بعينٍ

ونتركِ الأخرى على الخطر الأدهمْ

إِذا لم يحدثِ التحوُّلُ الأعظم . . .

❖

لستُ آكلَ الجيَفِ ولا داعيةَ الحقولِ الخربِه

أنبائيَ المحوطةُ بالشعلِ اليقظى

أنبائيَ التي من عمقِ الليلِ إِلى النهارِ آتيه

مصدرها هوائياتي ووكالاتي الباطنيه . . وعيني . . .

عيونكم يا إِخوتي: عيونكمُ الجاحظةُ الحمئه

عيونكم، جافةً أو دامعه

هي تعطيكم الرقمَ البليغَ والجملةَ المتقده

هي اليومَ الشاهدةُ الراصدةُ الموقِّعه . . .



ليس الأجدى - يا أخي - أن تهزمَ الاحجار

ولا أن تحفلَ بانقشاعاتٍ عابره

بل الأَوْلى أن ترى لمن تحوِّلُ الردومَ إلى حقولٍ فالحه

فإنْ لإخوتك: إفعل وثابر..

وإن للآخرين: لا ...

أخوك؟

تعرفه بجرحهِ ظاهرًا أو متواريًا

إن كان مجنونًا شُدَّ على يديهِ وعانقهُ أكثر

لأنَّه قاطعَ الخوفَ واحتلَّ الدوائرَ العصماء

أما الآخرون، أعداؤك الصنفيون، يا أخي:

فهم مستغلو نسْغكَ والدمِ في عروقك

هم ملاحقوكَ إلى أقصى حزنكِ وانكسارك

هم معذّبوكَ حتى في الشهر الحرام

الذين يرقِّمونكَ ويغزونَ حماك

الذين يؤنسونكَ بالموتِ ماسكينَ فيك بأنفاسِ الحياة...

❖

كذلك أنتَ يا إنسان: تئنُّ مدى العمرِ وتشقى

إن أخبرتُ بالوقت قلتُ لك:

لا علاماتُ انفراجٍ ولا أنخابُ بهاء

بل خيراتٌ محجوزةٌ وأراضٍ محتكرَه

بل حشودٌ غفيرةٌ وبالترديداتِ البليغةِ مثخنه

ولا ملاجئ تأوي إلاّ الغيرانُ والوقتُ الهباء...



هكذا ـ كما ترى يا إنسان ـ لم يبقَ إلاّ الوقوفُ والاستنفار

لم يبقَ إلا أن تحرّرَ وعيكَ في علوِ النارِ الموقده

وتولدَ للقصودِ المثلى

لأنّكَ من حافةِ الإفلاسِ ما أقربك!

لأنّ الوردَ والطيرَ والأشجارَ يرتجي متربك

لأنّكَ للهواءِ الغضِّ الكريمِ ما أحوجك!



تلك كانت خطبتي بنصها وفصها، فلا توقيع لي على غيرها.

محاميتي، أيدها اللّه، صبغت عليّ، أمام القاضي، صفات المجاهد الطبقيّ. وسألتْ المحكمة: متى كان الجهاد خطيئة أو عيبًا؟ وطلبتْ منها أن تستمع من فمي إلى عينة من الأحاديث في باب الحضّ على الجهاد الطبقيّ والدعوة إليه. وأمام رفض القاضي استنفرتْ وتجرّدت له بالقول: رفض المحكمة هذا يؤكّد صحة موكلي في الطبقية الساحقة المتجذّرة. وعلى كلّ حال، فقد لا يضيره في شيء أن يعيش ما تبقّى من عمره في سجن طبقة الدولة. إنَّه شيخ عجوز أصبح اليوم في مسيس الحاجة إلى الثبوت. إنّما حذارِ من ثبوت رجل مجرّب مفكّر مثل موكلي!

تحذير محاميتي قابله القاضي بالتنديد والإعراض، وقابلتُ أنا كلامها كلّه بالترحاب والتحنان. فجزاها اللّه عنّي خيرًا، وحماها من كلّ مكروه وكلّ حملٍ فاسدٍ ومالٍ حرام.

إنّي ذاهب لملاقاة ربّي عما قريب، فأخبروا محاميتي أنّي في الدار الأخرى سأحدِّثُ في محاسنها وزيناتها كثيرًا، وأنّي سأحفظ ثمة ديوان العرب بغية وضع شعر أرجو من صميم الفؤاد أن يرقى إلى سدة نورها واستقامتها... وعلى ملائكة الإلهام المعوّل وبها سأستعين.

قصة عدنان المستحم

هو أنا عدنان المستحم:

ابن يقظان المنبّه، عالم الأخبار وحافظ الأوقات، رحمه اللّه ونفع الجميع بذكره وذكراه.

حرفتي؟ عملت مذ كنت صبيًّا في محيطات الماء، في المسابح والشواطئ صيفًا، وفي الحمامات أثناء الفصول الأخرى. أما عن وضعيتي المدنية والجندية، فأنا رجل متزوّج وقرصان قديم، كما فات أن اشتغلت لمدة عام بحارًا في أسطولنا البحريّ.

مهما أنسَ ثقافتي البحرية فلن أنسَ منها ذلك البطل الرحالة، الذي كان اختصاصه الوحيد معرفة الكوارث الطبيعية النازلة ببني آدم منذ بدء الخليقة إلى عهدنا هذا. أما ما حدث له فقصة غاية في الغرابة لا تقبل أكثر من رواية... وهذه الرواية أقصها في عجالة فأقول:

أثناء رحلة الرجل الأخيرة إلى بلاد السند على ظهر إحدى سفننا واسمها العافية، حلا له أن ينادي على الركاب ويدعوهم

إلى حلقته. تجمع حوله حشد غفير، فأخذ يقصّ عليهم أهوال البحر وقصص المراكب والسفن التي هلكت من قبل. وبالطبع ارتعش الناس وخافوا، وأُغمي على كل النسوة. وما كاد الرجل ينتهي من سرد قصص الأولين مع أوقيانوس الظلمات، ومع الأحمر والمتوسط والميت وبحار أخرى، حتى أبرقت السماء وانهمرت أمطار طوفانية أفقدت السفينة رشدها، فغرقت وغرق الركاب، إلاّ الرجل فقد نجا ومبخرتُه وحمامةٌ كانت معه.

أما كيف نجا، فبأعجوبة!

ذلك أنَّه تشبّث بخشبة من حطام السفينة، وقصد ساحل السلامة، ترشده الحمامة المذكورة. وهنا عثرت عليه شرطة السواحل منطرحًا على الرمل، نصف ميت. وبعد فحصه طبيًّا تكشف أنَّه فقد السمع واللسان كليًا، فغدا لا يطيق الكلام أو إيصاله إلاّ بلغة الرموز والإشارات، التي بواسطتها أقرّ تراجمتها المهرة بكلّ ما جرى له وبمسؤوليته المعنوية في نكبة السفينة واستئثار البحر بركابها. وقيل، واللَّه أعلم، إنّ اعترافه هذا قد عزّزه وأفصح عنه تقرير برقيّ تلقته دوائر الشرطة المختصة من ربان السفينة وهي على وشك الغرق، كما أكّدته رسالة بخطّ الربان نفسه حملها الحمام الزاجل إلى تلكم الدوائر. وبعذاك زُجَّ بالرجل في غياهب السجن، إلى أن قضى نحبه ألمًا وحسرة على

ما بدر منه أو على فقدانه حاسة السمع وعضو الكلام، أو عليهما معًا، واللّه أعلم بما في الصدور.

رجوعًا إليَّ أقول:

قيل عنِّي إنِّي من المخلوقات التي تتمرّد حتى في السجون. وفعلاً، لديَّ أفكار أو قلْ حيلٌ حول التمرّد في دوائر الحبس والاعتقال، كالإضراب عن الطعام، وحجز الجلادين، وقراءة اللطيف بصوت يجعل أركان السجن تهتزّ وتتضرّع. أما أهداف هذه الأعمال فهي توفير الحياة الكريمة للسجناء، وتزويدهم بما يحتاجون إليه من كتب وجرائد وقطع موسيقية.

عيب عليّ أنّي أسلك كما لو أنّ في الإمكان تحويلَ السجون إلى وحدات سكنية لمدينة فاضلة، فصرت، رفعًا للتحدي، أسأل: لمَ لا تكون السجون كذلك وقد فشلتم في تحويل باقي رحاب المدينة إلى رحاب حياةٍ متحرّرة محبوبة؟

للقارئ أن يقرأ في سجلي الجنائيّ أنّي، وأنا في عهد سجني الثاني، أضربتُ عن الطعام لمدة غير محدودة، حتى إذا صرت غاية في الهزل والنحافة، انسللتُ كالشعرة من بين قضبان قاعة المستوصف، فقصدت ساحة «الهديم»، حيث حاولت إحراق ذاتي على الطريقة البوذية. ولو لم يسارع المارة إلى إطفاء ناري لفنيتُ بالتأكيد وقضيتُ نحبي... حدث لي ذلك بالفعل، وكان عندي

لحظتئذٍ السبيلَ الأوحد للشهادة والاستشهاد، وكان الاختيارَ الوحيد الذي تبقّى لي بعد انسداد الآفاق أمامي، وغدرِ الأقارب والصحاب، وأيضًا لأسباب أخرى لا أرضى أن يعرفها أحد سواي.

سُئلت، آه كم سئلت عن كيفية ورود أفكارِ أفعالٍ غريبة على ذهني، كالعمل في محيطات الماء، والتمرّد في السجون، والإضراب عن الطعام قصد الهروب منها، وإشعال النار في الجسم، وغير ذلك. وكان جوابي أمام المحكمة أنّي أطلعتُ الشرطة وقاضي التحقيق على حقيقة تلك الأفكار ومصدرِها من وجهة نظري، وأنّي إن كررت فيها القول، فسأكون في تبليغها دون بلاغة محضر التحقيق وخياله.

ومع ذلك، لي رغبة الآن في أن أخصّكم، يا إخوتي في الأسر، بباكورة اعتراف لم أدلِ به من قبل. ألا إن سألتموني عنه ماذا أقول؟

ما مرَّ في حياتي - والحقّ يقال - لم يترك لي إلاّ طعمًا في حنجرتي هو الماكثُ، الغالبُ، المتمكّن.

عنه ماذا أقول؟

إنَّه أشبه ما يكون بطعم رمادٍ باردٍ باهت، لا مأتى له ولا انحدار من ربوع الدفء أو الشعل اليقظى. رماد كلّ صفاته وذراته مشحونة بآياتٍ من سجلات القبح الكاسح والمرارة.

لذا، طلبًا لأفكار متألّقة وهاجة، نافعةٍ دقيقة، خارقةٍ لناعورة أيامي وعاداتي، أفكارٍ يتزوّد الغريب بها وابن السبيل، ويشهرها المستضعف المتروك في وجه الجلاد سيفًا، طلبًا للأفكار تيك صرتُ ألوذ بالغيران في المرتفعات، أو في السفوح والصحاري، حيث أتوحّد في التأمّل المستديم، وأغوص في عالمي الجواني...

لكن واحسرتاه! بعد تجريب وجوه من الخلوة شتّى، لم تنزل عليّ إلاّ أفكار متعبةٌ قانطة، أو يابسةٌ كالحة، فقيرةُ الدمِ والنسغ، عديمةُ الريادة. وأحسب أنّها كانت كلّها من وحي ما أُصبت به من زكام ساعل، فائض السجي والمخاط.

وبعد يأسي من الغيران، عرجت على محيطات الماء، فجاءت البركة، وجاء بعض الفتح، خصوصًا في الحمامات العمومية، حيث أخذتِ الخاطرات الملهِمة، مع الماء الفوار، تتقاطر عليّ باسترسال وسخاء. فطفقت أخاطر بالصدع بها أمام المستحمين فور تلقيها. ولما وصلتْ نتفُها إلى آذان السلطة الحساسة جدًا، رصدوا فيها الخطر على سدة الحكام العالية، فحرموا عليّ ولوج جميع الحمامات البلدية. لكنّي لم أخضع ولم أسلِّم، إذ حوّلتُ نصف داري إلى حمام مفتوح بالمجان للفقراء، فصرت فيه أقضي أوقاتًا معلومة أغتسل بالماء الساخن

حتى يغلي الدم في شراييني، ويتفصدَ العرق من جلدي، وتتوهّجَ حواسي وقريحتي، فأطلق العنان للخطرات والأفكار، وأجهر بها عاليًا ليسجّلها لحسابي حماة الحيّ والجيران.

تعقيبًا على قول المدّعي العام بأنّي رجل لا يبعث مطلقًا على الارتياح، لاحظت محاميتي اللبيبة الأبية أنّ هذه الخصلة هي في حالتي فضيلة لا رذيلة، وأضافت كلمة لن أنساها ما حييت: «كم صرنا في حاجة إلى رجال ونساء لا يبعثون على الارتياح... الارتياح بات اليوم ارتياحًا إلى أحوال التعفّن والتفسّخ وبؤس الأرواح. نحن في حاجة...» وأتى صوت القاضي، المعززِ بضرباته المطرقية، فدوّى مشيرًا إلى أنّ كلام الدفاع في غير محلّه، مذكّرًا أنّ وقت المحكمة من ذهب، وأنّ الكلمة العليا ترجع إليها لا إلى سواها...

ذلك كان قول القاضي المدجّج برموز الردع والترهيب، لكنّه لم يمنعني من أن أقدّر في سريرتي، على عكسه، أن الحق يبقى، على أي حال، حليفي السريّ وآيةَ حجّتي يومَ لا ينفع حكم إلا حكم اللّه، يومَ الحشر والهيعة العظمى حيث لا...

قصة بلال بو دمعة

هو أنا بلال بو دمعة:

ولقبي الحراكَ...

أبدأُ بالحمد (حمد ربّي) على ما حلَّ ويحلُّ ولا حولَ إلا بالحيِّ الحكيم القائمِ القيوم!

وقبل البدء أقول:

فليكن مجلسنا كالبنيان المرصوص، لا يأتيه الباطلُ من خلفٍ، ولا يبغي بوليسُ الخفاءِ أو الكسوةَ ولوجهُ من ثقبٍ إلا ووجدوهُ معدومًا، إلا ووجدونا كالمشطِ كالعشق.

كلموا السواريتَ كلموا العصي ثم صلّوا على الذي خَرّتْ له الملائكةُ وصلّى عليه الباري قديمًا.

أمّا أنا فقد كبرتُ في دار الوالدين، رضعتُ فيها من ثدي مترهلٍ جافّ، تعلمتُ فيها أنّ البردَ حين يسكنُ في العظامِ فآهٍ ثم أهٍ يا عباد!

ذاك العدو (البرد) ضربني وسوّسَ هيكلي ، فقالت العرّافة : « فيه عيشة ، وتبغي حوائجها عيشة » ؛ وقالت طبيبة الحي السودانية : « عليه بالكي والكي حتى يُشفى » .

علّقت من ثمَّ الأحراز وكووا مفاصلي فخفَّ الحال ، إلى حين شربتُ ككلٍّ الفقراء من الزيوتِ المسمومة ، زيوتِ الغشِّ والجريمة . حملتني زمناً طويلاً العكاكيز ، لكنّي لم أحزنْ ، إذْ سكّانُ المدينة الفقيرة كلّهم تقريبًا ضربهُمُ الشلل ، كلُّهم حملوا العكاكيز ، كلُّهم حمدوا اللّه على عمومية المصاب ، كلّهم خنعوا خضعوا ركعوا سجدوا بالعكاكيز ، تمشّوا رقصوا ناموا بالعكاكيز . . .

أنا لا أشتكي إلى أحدٍ إذ الشكوى للّه ، لكن لأقول لكم إنّي لا أرتاحُ إلى بدني ولا عليه أتّكِلُ يا صحاب . . .

إيه ! عندك الحقّ : الجسمُ واهنٌ عيان ، والثابتُ عيشكَ بين قومك في كنفِ الترك والخذلان .

تطلبُ الشغلَ ، لا شغل !

تطلبُ العونَ ، لا عون !

تطلبُ الإفراجَ عن حقوقك الدنيا ، لا إفراج !

تطلبُ ما تطلب فينفضونكَ أو يمهلونك حتى تقنطَ وتزهقَ مسحوقًا مع الزاهقين .

الحيلةُ الأخيرةُ في جعبتي: بعثتُ رسالاتٍ إلى ولي الأمر، أشكو إليه تقتير بلادي وقسوتها عليّ. انتظرت ما شاءَ اللّه ردًّا، فلا ردّ ولا بعض الردّ. فهمت أنّ الحرس والرقباء أتلفوا رسالاتي بعيداً عن الأعتاب المحروسة والمقام العلي.

اليأسُ وراءكم والبحرُ أمامكم، وليس لكم واللّه إلاّ أن تهيجوا وتركبوا الموج، فإمّا أن تربحوا مع الفرقة الناجية، وإما أن تُذبحوا في جوف الماء أو يتقبّأكم الشط.

أحَرَّاكَ حرّاكَ خويا حرّاكَ!

والأمواج عليك طاغيه واه واه واه واه...

ركبت قوارب الموت مرات، لكنّي كنتُ دومًا أُرَدُّ إلى بلادي. حتى إذا دفعت الثمن المطلوب صدروني إلى بلاد الفرنسيس، لأحفر في مناجم فحم الفرنسيس، لأنطفئ على مهل، ليربح الأسياد على عجل...

الطبيبة العجمية رأت أنّي قليل الصحة من جهة الصدر، فعفّت عنّي مقابل خدمة أحكيها اليوم، ولو أنّي أقسمت لها أن أكتم سرّها، وسرُّها هو: ....

هكذا تخايلتُ ونجوت. فدخلتها، المناجمَ دخلتها أشقّ طريقي تحت ضوءٍ ضعيف، أخدشُ أخدشُ بالفأسِ بطنَ الأرض، أسأل في ظلام الدهاليز، فلا أجد ما أقوله لنفسي سوى أنّ جهنم توجد في عذابات جسمي.

جسمي الذي في المناجم، في المقابرِ الفحمية، في الوقتِ الفحميّ، في الهواءِ الفحميّ؛ جسمي في الفراغِ، في العراءِ، في غربتي الفحمية، في حزني الأصيلِ الفحميّ، في عيائي الفحميّ، في أنفاسي وآهاتي، في نزيفي الروحيّ؛ جسمي في جسمي الدمويّ الشبقيّ الآدمي... آ!

إِيه، ذكّرتني، ورزقُ النهار يعصفُ به الليلُ وتذهبُ به المومساتُ العاهرات، مصّاصاتُ الصحة والمال، المؤمنات بالثالوثِ والجنسِ والمال. وبين قوسين أقول لكم إِنّي كنت أعجبهنّ، وسرّ ذلك أنّي: ....

نهايةُ مطافي في بلاد الفرنسيس أنّي أصبتُ بانتكاسة قوية مديدة، ردّوني أثناءها إِلى بلادي ـ فردّ اللّه الغرباء! ـ ردّوني معطوبَ الجوارحِ مشوّه الروح واللسان. ردّوني أعطوني إِجازةً

دائمةً غائمةً ساعلةً مغمّى عليها، فردَّ اللّه الغرباء. أنشدوها يا بني قومي باللحنِ: ردَّ اللّه الغرباء!

واليوم وقد صحوتُ أصبحتُ أفرقعُ الأصابعَ والحزاق. وحين أعيى أقبض الحائط مع «المتحيطين» وأنتظر المعاد. وحين يعيينِي الانتظار أدور مدجّجًا ببؤسي ويأسي حول أسوار الأحياء الرفيعة، خلف أنظار أهل الهواجسِ والوساوسِ الفريدة.

ولن أموت لن أموت!

والذي قلبي وأَنْفُسي بيديه لن أموتَ حتّى أكظمَ غربتي، وأربّيَ لحيتي، وأنبذَ ثوبي أنا المنذرُ العريان، وأضاجعَ القمرَ والشمسَ والأحجار. ومن كان صنديدَ زمانه، عدّاءَ زمانِه، منبوذَ زمانِه، فليتبعني.

أقول قولي هذا وأغسلُ يديَّ منكم، يا سادة البلادِ والدولة.

أقول قولي هذا وأنسحب من مسِّكم ومسرحكم ومِنْكُمْ.

أقول قولي هذا وأزيدُ كلامًا واللّه ثم واللّه ما سمعتم من قبل أبلغَ منه ولا أصدقَ ولا أفدحَ ولا أعتى، كلامًا لو أدركتم كنهه وشرارته لاقشعّرت له جوارحكم وبكى عديو الدمع،

غليظو الطبع، قساة القلب، وهم كُثُرٌ في دنياكم. فافتحوا له آذانكم وصدوركم، افتحوها ما وسعكم الفتح، عساكم أن تهضموا وتفهموا قوليَ الثاقبَ البليغَ هذا: ....

....

....


قصة الشاب حمادة

هو أنا حمادة:

مريد الشيخ الكريم عبد اللَّه المتوغّل. أنا من استفتيته في أمر عشقي لفتاة لم أرها إلاّ في النوم، وأشار عليّ بالبحث عنها ما وسعني البحث، وورّثني غاره الجبليّ وشيئًا من عمله وسيرته. وإليكم قصاصات مما حصل لي إذ أنا في الغار أو في جواره.

ذات ليلة ليلاء، مرعدةٍ ممطرةٍ، أصابني السهاد، وتقنبتْ حواسي وتهيّجت، فما هي إلاّ لحظات حتى التقطت أذناي بين رعد وآخر صوتًا نسويًا صادراً من زوايا شتّى على نحو صادع مهدّد:

ـ أنا مولاة الغار منذ أزمان... ما لك منه شيء وأنت فيه نشاز. فارحل كما رحل شيخك ولا تزاحمني على ملكي.

أجبت مغالبًا ارتباكي وخوفي:

ـ شيخي أذن لي بتملّك الغار من بعده، وأنا لم أرك من قبل يا مولاتي... وحتى الآن لا أراك... كيف لي أن أزاحم ما لا يُبصر؟

ـ لو كنتُ تبصّر بغير عينيك القاصرتين، قالت، إذن لأدركت أنِّي دفعت عنك الزواحف والوحش والإنس. تسألني لِمَ فعلت؟ من باب إغاثة الملهوف وإكرام الضيف... والآن أراك استحليت المقام حتى ثقُل ظلك عليّ.

ـ وما يضيرك يا مولاتي أن أمكث كشيخي حيث وجدتُ الملاذ والحلاوة؟

ـ الغار لا يتّسع لغربتين.

ـ لا.. بل الغريبُ للغريبِ نسيبُ.

ـ ما اجتمع غريب وغريبة إلاّ وثالثهما الشيطان. فإمّا ترحل بعد يومين، وإمّا أرفع عنك حراستي ثم الويلَ الويل...

هدأ الصوت فجأةً وغاب، وكذلك المطر والرعد. ذعري زاد واشتدّ، فبقيت تحت أغطيتي أتدبّر أمري وأرقب بزوغ الصبح على أحرّ من الجمر.

مع إطلالة الأنوار الأولى قمت أنفذُ ما قرّرت: مسلحًا بإيماني وعصا غليظة، فتّشت في الغار شبرًا شبرًا ونقّبت، علّني

أعثر للثعابين والعقارب على أثر أو وكر، فما وجدت غير ما ألفته من عشب وخزّ؛ ثم إنِّي تفقدت محيط مستقري على بعد أقدام من جهاته الأربع، فألفيت حاله هادئًا بل أهدأ ممّا عهدته من قبل. تذكّرت أنّ المرأة أمهلتني يومين، فتوجّست خيفة من ذاك الهدوء، وحسبته نذير شؤم وويل. رفعا للتحدي تحزّمت بالجراءة والعزم، وقضيت أطراف النهار في العبادة والصوم، يدي على عصاي وأنا أحرس من كلب. طلبتُ من ربّي أن يجعل لي آية... لا آية منه إليّ! اللَّهم إلاّ من هذا الهدوء الهاطل، وهذا الهمود الهائل قبالة روحي الفائرة القلقة... حتى الأشجار اشرأبّت أغصانها وتشنّجت، والعصافير والصراصير خرست فجأة واختفت، والهواء ثقل وتغبّر... وامتدّت هذه الأحوال مغاليةً مستفحلة، وحين تاخمت المساء، ذهبتُ أتفقّد محيطي القريب وأستطلع مكامنه وزواياه، فما إن دنوتُ من عين الماء حتى صُعقتُ برؤية كلب مشنوقًا على غصن شجرة، يأكل الذباب والديدان من بطنه المبقور. هدأتُ روعي فدفنت الكلب في حفرة، ثم آويت إلى غاري مذهولاً دائخًا.

قلت هذا الليل الهابط سأقطعه إلى منتهاه، وأسهر في حضنه قابضًا بيد على عصاي وبأخرى على لحيتي المظلمة؛ فإما يكون لي خيراً وربحًا، وإما يكون عليّ شرًّا وذبحًا. وحتى هذا الاحتمال الأخير لو تحقّق، فلا تحسبوا، يا إخوة الأسر، أنِّي كنت

أهابه وأخشاه. ألست أعتنق الخلوة والخلاء على طريقة شيخي، حتى أمسيتُ سليل السعي إلى الأسِّ والمطلق! فلعلّ الاحتمال ذاك، لو حدث، يعجّل المسعى وينجز الوعد...

على إثر ارتفاع همّتي وإقدامي صرخت ملء حنجرتي: لا أخاف، فتردّد بين أحشائي وأضلعي صدى صراخي؛ وكرّرت الصراخ في جوف الليل عسى أن تسمعه العجوز الشمطاء، قاطنةُ الغار الخفية... لا مجيب ولا خبر، لا خشخشةَ ولا دبيبَ إلاّ من أشيائي القريبة وشموعي المتّقدة. صرخت بكلمات تحدٍّ مزيدة: الغار غار اللّه، يهبه لمن يشاء من عباده. إن نازعتني فيه يا امرأة، فاظهري وانزلي أنازلْك وأعاركْك حتى يكون الغار لمن غلب...

لكن لا مجيبَ ولا خبر...

مغالبًا هجمة النوم عليّ، شرعت أدون ما جرى لي ويجري، وأُشهد في غمرة الكلمات والفقرات وزحمتها كل حواسي وحدسي، ومن دون أن أطرد عقلي أو أهدم ركنه... كتبت فيما كتبت أنّ العجوز اللامرئية إن هي ووعيدها إلاّ أضغاث أوهام، أو خيالات حمّى باطنية. وأثناء تدافع المعاني والصور وتداعيها، جأرتُ إلى اللّه:

ربِّ اهدني سواء التأويل، ولا تجعل فيض اللفظ عليَّ لغوا... ربِّ يسرّ.

كان النعاس يتغلغل في جفوني، والقلمُ في يدي يترنّح فيسقط منها جراءَ تعبي وإرهاقي. هرقت على وجهي ما تبقّى من ماء في خابيتي، فلم أفلح سوى في إطالة يقظتي لحظات معدودة. وبعدها استسلمتُ مقهوراً لنوم رأيت فيه العجب العجاب: صوتُ عجوز الغار يصدر من ثقب لم أضبطه، لكنْ ليِّنًا كان هذه المرة وحنونًا متودِّدًا.

قالت: ناديتني يا حبيبي وأغلظت لي في القول وتعدّيت.

قلت: اظهري...

ظهرت فإذا بها، يا إخوتي في الأسر، حسناء بهية في مقتبل العمر، تقول للبدر انزلْ أو أصعدْ. إنَّها كتلك التي أحببتها في النوم أو لعلّها هي... لو وصفت لكم جمالها الخارق الفتّان لأصابكم في التوّ ما أصابني. هل أبلغكم بما أصابني؟ إذن اسمعوا واضبطوا أعصابكم حتى لا تخرجوا عن طوركم فتحتلموا؛ اسمعوا وتعقّلوا...

قلت: جمالِك هذا، سبحان المصوّر المبدع، فوق الظنّ والإمكان، لم أر مثله إلاّ في أحلام المنام... فهل من الإنسِ أنتِ أم من حوريات الجنة؟

قالت وهالة نور تحوطها: أنا ذرة ممّا تنشده وتتوق إليه. أتجلّى أو أغيب، وأجيب أو أستحيل.

قلت منفعلاً مندفعًا: لا، بل أنت واسطةُ العقدِ الأبديّ وياقوتةُ المطلقِ الذي...

قالت مقاطعة: لا غزلَ ولا إغراءَ وإلا غبت.

قلت معاندًا: بل أشهدُ بما أرى وأتشرّفُ وأستلذّ.

فجأةً غابت.

صحت: عودي.. باللّه عودي...

لم تعد. صحت مرارًا وتكرارًا حتى أيقظني صياحي. فتحت عينيّ مدهوشًا والليل لما ينجلِ. ذهني كان مازال رطبًا برؤياي المنامية، فأقدمت على تقييدها في ورقي قبل أن تتلاشى... بعدها فكّرت أن أخرج للتطهّر في ماء العين القريبة، حتى أمسّ الذكر الحكيم وأقرأ فيه ما تيسّر من الآي وأهدأ واستعصم. لكنّ حلكة الظلمة أرهبتني، فآثرت الترقّب والتأنّي. راودني النوم مجدّداً فأسلمت له مقاليدي، وطيٌّ وعيي الباطن طمعٌ في حلقة أخرى تعود لي فيها ذات الجمال البهيّ.

وفعلاً...

فعلاً عادت وجديد مظهرها في شعرها المسرّح الطليق وفستانِها الورديّ الشفيف. عادت فقالت: لا سلام ولا كلام فيما تعشقه وتهواه، ولا صعود إلى الأعماق إلاّ بعد أن أطهّرك

بماء لا أعذبَ منه ولا أصفى. الجراثيم الباطنية والأدران الدفينة فيك لا يأتي عليها إلاّ مائيَ هذا.

دنت منّي، فبهرني نورها وأعماني. شعرتُ بيديها تعريان جسمي إلاّ من مئزري. بيدٍ طفقتْ تصبّ ماءها عليّ، وبأخرى تدلكُ أطرافي الحلال... آه كم استحليتُ الماء الدافئ الزلال والدلك الناعم المنعش! تمنّيتُ لو ظللتُ تحت لطائف هذه النعم آماداً متواترة متجدِّدة. أفليس اللّه جعل من الماء كلَّ شيء حيّ!

لكن بغتةً، ومن دون فاصل أو إنذار، انقلب الدلك نغصًا وركلاً، واستحال ذلك الماء عفنًا وبرداً. همهمت مرتجفًا: عودي بي يا خيرَ زائرةٍ إلى «التحميمة» الأولى... باللّه عودي...

غير أنّ اشتداد آلامي ورعداتي أيقظني مذعوراً تحت وابل من الركلات، يكيلها لي رجال شداد، وسيلِ ماءٍ عكرٍ قارس يصبّونه عليَّ من سطول. أمروني بعد أن نفد ماؤهم وكفوا عنّي شرّهم: «نوض». حملقت فيهم من دون أن أبدي حراكًا، فإذا هم أربعة، اثنان من بوليس الكسوة واثنان من البوليس السريّ.

قلت: ما أنا بناهض.

قالوا: «كيفاش»؟

قلت: جريحُ المطلقِ لا ينهض...

لم يفهموا. نعتّ رجليَّ بإشارة تفيد أنَّهما مشلولتان. لم يصدّقوا فانتزعوا منّي أوراقي وأحاطوني بأحطاب وافرة وبأغطيتي ولحافي ثم أوقدوا في الكل النار، فما كان منّي إلاّ أن استقمت واقفًا، مقاومًا دوختي ورضوضي، وهرعت نحو باب الغار حيث تلقفني الرجال الشداد، واقتادوني في موكب دوابهم إلى أقرب مركز للشرطة.

وأنا الآن، يا إخوة الأسر، واقف أمامكم، حليقَ نصف اللحية، كما من باب الإهانة فعلوا بي...

أنا الواقف أمامكم، ألصقوا بي تهمًا عديدة لا تخطر ببال الحمقى فكيف ببال العقلاء؟

في صكّها: إطلاق لحيتي على نحو مخالف للسنة؛ احتلالي اللاشرعي من دون عقد ولا ترخيص لغار أثريّ هو ملك خليفة اللّه في أرضه؛ اصطناعي الشلل من باب الانتحال والتمويه؛ وجودي بالغار في حالة تلبّس وزنى مع امرأة، تشهد عليه في زعمهم تقييدات بخطّ يدي؛ وهلمّ جرًا.

حاججت في كلّ تهمة على حدة، وقلت في الأخيرة إنَّها من أضغاث أحلام ليس إلاّ، ولو أنّي سهوت عن افتتاح ذكرها في أوراق بالعبارة المعتادة: رأيت فيما يرى النائم...

سألوا: هل لك فيما تدّعيه شهود من لحم ودم؟

قلت لا:

قالوا: إذن التهمة ثابتة بالاعتراف المكتوب والأثر الملموس.

ثم وأنا بصحبة وكيلي الحُزَقّةِ المتكرِّش، الفاغرِ الفم والمكشوف الأسنان دومًا، المهرولِ إلى المال في الشوارع وبين المكاتب، إذا بقاضي التحقيق يأمرني برفع الغطاء عن هوية المرأة المثبوتة في أوراقي، ظنًّا منه أنَّها قد تكون زوجة ضابط سامٍ (لم يسمّه) توجد في حالة فرار؛ فضحكت... يا ما ضحكت ملء شدقيَّ وحنجرتي! ضحكت مثلما لم أضحك من قبل... على نحو مطردٍ مدوٍّ ضحكت حتى التويتُ وكدتُ أسقطُ على أم رأسي، وتردّدتْ أصداء ضحكي في الديوان والأبهاء المجاورة، وانتقلتْ عدواه إلى وكيلي، فقام القاضي ونادى على الحرس ثم طردني بمعيتهم شرّ طردة.

اضحكوا معي، يا إخوتي في الأسر، أضحكوا معي... نعم هكذا وأكثر.. ثم أكثر.. حتى النصر.. وبعد النصر.. اضحكوا فإنّ نبي اللّه حدّثني في منامي قال: من ضحك في وجه الطغاة تحدّيًا فمات فقد مات شهيدًا... وأضاف عليه الصلاة والسلام: ....


حاشية

في ساعة متأخّرة من الليل، دخل كبير الخدم على المارشال الرئيس متفقّداً الأحوال، فألفاه غاطًا في النوم أمام شاشة التلفاز المشتغل من دون صورة. اتّخذ الخادم كل الاحتياطات لتخليص يد الرئيس من كأس الخمر، ثم كرّر همساً ترغيبه في الانتقال إلى مقصورة النوم حتى توفق.

في الصباح تذكّر الرئيس فيلم الأمس، فتأسّف لكونه لم يخضع للميكساج والدبلجة بالفرنسية، وقرّر استدعاء النائب عمّا قريب لتوبيخه على هذا التقصير الفاضح، وإخباره بوجوب تأجيل الملف إلى أجل غير مسمّى... ولما فرغ من تناول فطوره الإنجليزيّ، قصد مكتبه في قصره وهو يحكّ صعله ويتشجأ جُشاءات.

الفهرس

صدر للكاتب

من الإبداعات بالعربية

- كناش إيس تقول (شعر)، الدار البيضاء، 1979 .
- ثورة الشتاء والصيف (شعر)، الرباط، 1983 .
- كتاب الجرح والحكمة، دارالطليعة، بيروت، (ط 2) 1998 .
- مجنون الحكم، (جائزة الناقد للرواية)، دار رياض الريس، لندن، 1990 .
- محن الفتى زين شامة، دار الآداب، بيروت، 1993 .
- سماسرة السراب، المركز الثقافي العربي، بيروت / الدار البيضاء، 1995 .
- العلاّمة، دار الآداب، بيروت، 1997 .
- أبيات سكنتها . . وأخرى (شعر)، دار الطليعة، بيروت 1997 .
- ديوان الانتفاض (شعر)، وكالة شراع، طنجة، 2000 .
- فتنة الرؤوس والنسوة، دار الآداب، بيروت، 2000 .
- زهرة الجاهلية، دار الآداب، بيروت، 2004 .

أمام منطوقات وريقاتي، يا إخوتي في الأسر، لم يتعب المفكّكون والمؤولون المأجورون في حل شفراتها ورموزها، ولم يتردّدوا في ردّ دفائنها وهواجسها إلى رغبة شديدة أكيدة لديَ في إعادة فتح الزمن البهي المجدي، الصاعد ترياقًا لخسارات الزمن الآسن المترسّب في مستنقعات الحياة المسدودة...

وجاءت الافصاحات والتوضيحات مستندة إلى آخر تقارير الشرطة لتقول: إنّ المدعو عيسى بو وريقات إنّما يتستّر بالحلولية وفلسفة وحدة الوجود ليشيع بين الناس نظرية الحزب الواحد والفكر الوحيد ودكتاتورية المعوزين والعمال والعبيد. والحجج على ذلك، الرمزية منها والمادية، أنّه كان لا يمشي إلاّ بنعل واحدة، ولا يصفق إلاّ بيد واحدة، ولا يعشق إلاّ فصلاً واحدًا، ويدعو إلى الزواج بالواحدة.

د. بنسالم حمّيش: مفكّر وأديب مغربي. حاصل على دكتوراه الدولة من جامعة باريس السربون. أستاذ الفلسفة بجامعة الرباط. يمارس مسؤولية حزبية وحقوقية. فاز بعدّة جوائز.

* جائزة الناقد للرواية، لندن، 1990.
* جائزة الأطلس الكبير (الفرنسية)، الرباط، 2000.
* جائزة نجيب محفوظ، القاهرة، 2002.
* جائزة الشارقة لليونسكو، باريس، 2003.

تصميم الغلاف رم الجندي

دار الآداب

هاتف ٨٦١٦٣٣-٨٠٣٧٧٨

ص ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت